CC BY

أَبو عبد الله الحُميدي

وكتابُهُ جَذْوةُ المُقتبِس

حازم عبد الله خضر – رحمه اللهُ– *

تأريخ التقديم: 2014/4/2 تأريخ القبول: 2014/6/5

المستخلص:

لأهمية شخصية الحميدي الأدبية والثقافية عرّجت الدراسة على شيء من سمات أدبه –في الشعر والنثر–لكي يكون ذلك مدخلاً للتعريف بالكتاب وفهم أهدافه ودواعي تأليفه.

وهكذا تناولت الدراسة كتابه –جذوة المقتبس– معتمدة على عرض موجز لمصادر الكتاب ومنهجه وماقيل من وجود صلات بينه وبين أخرى مشرقية او أندلسية.

واقتضت طبيعة الدراسة الإشارة الى جانب منها في مكانه المناسب ، كما تناولت الدراسة جوانب مما انطوى عليه كتاب الجذوة من القيمة الأدبية والتأريخية ، وما احتله هذا السِفْرُ –على الرغم من كونه مجلداً واحداً– في المؤلفات والآثار الأندلسية ، وكذلك ما امتاز به من السمات الظاهرة الموجزة على صعيد الكتابة الأدبية، وما امتاز به أسلوبه في التعبير الأدبي والتأريخي.

الكلمات المفتاحيَّة: (مجتمع، أفكار، أدبيات) .

تقديم:

تعود قصة هذه الدراسة المخطوطة الموسومة بـ(ابو عبدالله الحميدي وكتابه جذوة المقتبس) للأستاذ الراحل الدكتور حازم عبدالله خضر–رحمه الله–(١٩٣٢–١٩٩٨) (*) الى

* **استاذ / قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل، قدّم لهُ وراجعهُ: الأستاذ الدكتور يونس طركَي سلّوم البجَّاري أستاذ الأدب الأندلسي في قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة الموصل .**

(*) أشرف على أطروحتي في الدكتوراه الموسومة بـ(الشعر في ظل بني صمادح) والتي نوقشت في كلية الآداب بجامعة الموصل في 1996/10/24.

مشورتي التي طلبتها منه في حزيران ١٩٩٨، وأنا اعد دراسة عن منهج أبي بحر صفوان بن ادريس (ت 698هـ) وكتابه زاد المسافر. وزوّدني استاذي بدراسته المخطوطة المذكورة آنفا للإفادة منها، ونظرت في الدراسة وأفدت من منهجها ، بيد أني لم يتسنَ لي إعادتها اليه، لأن المنية عاجلته في 7/21/ ١٩٩٨ من العام نفسه.

وبقيت دراسته المخطوطة وديعةً عندي مدةً طويلة ناهزت الواحد والعشرين عاما الى أن زارني نجله (عمر) وكريمته (أروى) (**) في كانون الأول ٢٠١٩ وأخبرتهما بأني لازلت محتفظا بدراسة مخطوطة لوالدهما –غفر الله له– ، وطلبا مني أن أراجعها وأعمل على نشرها ، وبالتأكيد فإن هذه الدراسة هي من إرثه العلمي .

ونزولا عند رغبتيهما، وقبل ذلك وفاءً لأستاذي قمت بمراجعتها وعملت على نشرها ، لتنتظم هذه الدراسة مع دراساته التي نشرها من قبل في حياته، ولتلبس ثوب المؤلفات ، وهي بكل تأكيد مأثرة علمية تضاف الى مآثره الكثيرة التي كتبها في أدبنا الأندلسي . عسى أن يجعلها الله في ميزان حسناته.

أما أنا فخامرني شعور مليء بالسعادة وأنا أنتهي من مراجعتها ودفعها الى المطبعة لترى النور كتابا يقرؤه المختصون وغيرهم .

أ.د.يونس طركَي سلَّوم البجَّاري
أستاذ الأدب الأندلسي
كلية الآداب– جامعة الموصل
2020/2/12

(**) الست أروى حازم عبدالله خضر باحثة في الأدب الأندلسي حصلت على الماجستير في الأدب الأندلسي عن رسالتها الموسومة بـ(شخصية الرسول (ﷺ) في شعر دولة الموحدين) وجرت مناقشتها في قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل بتاريخ 2005/6/30، وكنتُ أحد مناقشيها. وهي الآن مُدرَّسة اللغة العربية على ملاك وزارة التربية العراقية/ المديرية العامة للتربية في نينوى، إعدادية الأخوة للبنين في دوميز – فايدة.

أبو عبد اللّٰه الحُمَيْدي
وكتابُه
جذوةُ المقتبس

الدكتور
حازم عبد الله خضر
أُستاذ
كلية الآداب / جامعة الموصل

(ورقة العنوان)

أبو عبد الله الحميدي
وكتابه جذوة المقتبس

الدكتور: حازم عبد الله خضر
أستاذ الأدب الأندلسي
كلية الآداب / جامعة الموصل.

بين يدي البحث

حفل القرن الخامس للهجرة في الأندلس بالعديد من العلماء والأعلام والمثقفين والأدباء الأفذاذ الذين أسهموا إسهاماً واسعاً في إثراء المكتبة الإسلامية العربية بمؤلفاتهم وآثارهم مما جعل القرن الخامس بفضل جهودهم وآثارهم يبلغ ذروة الازدهار والتقدم العلمي والثقافي والحضاري في شتى جوانب الحياة الأندلسية، ومن هاهنا فقد رأيت من الواجب القيام بتسليط شيء من الضوء على هذه الفترة – فترة القرن الخامس للهجرة – وهي فترة الطوائف والمرابطين، بالتعريف بعدد من العلماء والأدباء الذين كانت آثارهم العلمية والأدبية من دلائل الازدهار العلمي وسمات التقدم الثقافي والحضاري في وقت كان العالم من حول شبه الجزيرة الأندلسية يعيش في فترة من الظلام والجهل والتأخر في العديد من جوانب الحياة الإنسانية.

ومن هؤلاء الأعلام أبو عبد الله الحميدي صاحب كتاب الجذوة وكتاب تسهيل السبيل إلى علم الترسيل وغيرهما من الآثار التي ورد ذكرها في المصادر الكثيرة وترد الإشارة إليها في الموضع المناسب من هذا البحث،

والكتاب الأول هو المقصود بهذه الدراسة الموجزة، أما الثاني فما زال غير محقق إلى حد الآن(1).

أما كتاب الجذوة فقد طبع أكثر من مرة ولكنه – في رأيي – ما زال بحاجة إلى دراسة مفصلة وتحقيق علمي يعرف بملامحه ويتتبع تراجمه ويستقصي ما ينطوي عليه الكتاب من سمات علمية وأدبية وتاريخية، ولعل الله عز وجل يعين على أن يسد هذا البحث شيئاً من هذه الحاجة ريثما يتم تحقيقه على الوجه الأكمل فيتم بذلك التعريف النافع بهذا السفر القيم الذي يمثل ثقافة وفكر علم من أعلام

(1) - وقد علمت مؤخراً أن أحد الطلبة المغاربة قد سجل هذا الكتاب رسالة ماجستير في جامعة القاهرة دراسة وتحقيقاً.
كما سمعت أيضاً أن الباحث الكبير المعروف الأستاذ فؤاد سزكين قد طبع نص كتاب التسهيل هذا بالتصوير عن الأصل المخطوط دون تحقيق ولم أحصل عليه.

(الورقة الأولى)

خاتمة

وبعد فهذه صفحات قليلة أوجزت القول فيها من خلالها في أهم خصائص وسمات علم من أعلام الثقافة الإسلامية في القرن الخامس في الأندلس وقد أكد من البحث فيه أهمية الحميدي عالماً وأديباً ومثقفاً ومؤلفاً ومحدثاً وراوية للحديث. جمع بين الاختصار والإيجاز ووفرة المعلومات والأخبار والآثار والنصوص اللازمة لكل ترجمة من التراجم التي حاولت ترجمة كل الأعلام أندلسيين عبر قرون طويلة منذ الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأندلسية وحتى أواخر القرن الخامس للهجرة.

وتكشف البحث كذلك عن قيمة الجذوة على الصعيدين الأندلسي والمشرقي بما حوته من النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية الهامة عن الأندلس فكانت قاعدة هامة من قواعد التاريخ والحديث والأدب ومكنت عدداً من مؤلفي المشارقة والأندلسيين من الإفادة منها في تآليفهم اللاحقة وما تمخض عنه البحث تلك الصلة القوية التي كشف عنها بين الأندلس والمشرق ومتانة العلاقات العلمية والثقافية بينهما لم تزل صور من الرحلات العلمية وتبادل المعلومات والآثار في نطاق واسع وآماد رحيبة تجاوزت الحدود وتغلبت على بعد المسافات ومشقات الأسفار في تلك العصور مع ما تستغرقه من الفترات الزمنية الطويلة.

وأخيراً فلعل هذا البحث المتواضع قد أسهم بشكل واضح في إثبات جدارة سلفنا الصالح من العلماء والأدباء والمؤرخين والمؤلفين والأشواط التي قطعوها في ميادين العلم والمعرفة وما وصلوا إليه وحققوه من معالم الحضارة الإيجابية المتوازنة الحقة، في عصور كان العالم خلالها فيما حول الجزيرة الأندلسية – يغط في نوم عميق ويرزح تحت جهالات وضلالة الحياة في ظل سيادة الإقطاع والرق وسيادة الأمية وتحكم الأباطرة والقياصرة.

فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

د. حازم عبد الله خضر
أستاذ بقسم اللغة العربية
كلية الآداب / جامعة الموصل

(الورقة الأخيرة)

بين يدي البحث:

حفل القرن الخامس للهجرة في الأندلس بالعديد من العلماء والأعلام والمثقفين والأدباء والأفذاذ الذين أسهموا اسهاماً واسعاً في اثراء المكتبة الاسلامية العربية بمؤلفاتهم وآثارهم مما جعل القرن الخامس بفضل جهودهم وآثارهم يبلغ ذروة الازدهار والتقدم العلمي والثقافي والحضاري في شتى جوانب الحياة الاندلسية؛ ومن هنا فقد رأيت من الواجب القيام بتسليط شيء من الضوء على هذه الفترة –فترة القرن الخامس للهجرة– وهي فترة الطوائف والمرابطين، بالتعريف بعدد من العلماء والأدباء الذين كانت آثارهم العلمية والأدبية من دلائل الازدهار العلمي وسمات التقدم الثقافي والحضاري؛ وقت كان العالم من حول شبه الجزيرة الاندلسية يعيش في فترة من الظلام والجهل والتأخر في عديد من جوانب الحياة الانسانية.

ومن هؤلاء الاعلام أبو عبد الله الحُميدي صاحب كتاب الجذوة وكتاب "التسهيل إلى علم الترسيل" وغيرهما من الآثار التي ورد ذكرها في المصادر الكثيرة وترد الاشارة إليها في الموضع المناسب من هذا البحث.

والكتاب الأول هو المقصود بهذه الدراسة الموجزة، أما الثاني فما يزال غير محقق حتى الآن[1].

أما كتاب الجذوة فقط طبع اكثر من مرة ولكنه –في رأيي– ما يزال بحاجة إلى دراسة مفصلة وتحقيق علمي يعرّف بأعلامه ويتتبع تراجمه ويستقصي ما ينطوي عليه الكتاب من سمات علمية وأدبية وتاريخية، ولعلَّ الله (ﷻ) يعين على أن يسد هذا البحث شيئاً من هذه الحاجة ريثما يتم تحقيقها على الوجه الأكمل فيتم بذلك التعريف النافع بهذا السفر القيم الذي يمثل ثقافة وفكر علم من أعلام الفترة ويحتل مكاناً مهماً في مصادر دراسة الأدب والتاريخ الأندلسيين ابتداء من الفتح الاسلامي للأندلس حتى وفاة المؤلف سنة 488هـ.

(1) وقد علمت مؤخراً أن أحد الطلبة المغاربة قد سجل هذا الكتاب رسالة ماجستير في جامعة القاهرة دراسة وتحقيقاً. كما سمعت أيضاً أن الباحث الكبير المعروف الاستاذ فؤاد سزكين قد طبع نص كتاب التسهيل هذا بالتصوير عن الأصل المخطوط دون تحقيق ولم أحصل عليه.

وقد رأيت أن أبدأ بالتعريف باسم الحُميدي ونسبه ثم اتناول نشأته وحياته وثقافته وعلمه ومؤلفاته.

ونظراً لأهمية شخصية الحُميدي الأدبية والثقافية فقد كان على هذه الدراسة أن تعرّج على شيء من سمات أدبه –في الشعر والنثر– لكي يكون ذلك مدخلاً للتعريف بالكتاب وفهم أهدافه ودواعي تأليفه وهكذا جاء البحث في تناول الجذوة معتمداً على عرض موجز لمصادر الكتاب ومنهجه وما قيل من وجود صلات بينه وبين مؤلفات أخرى مشرقية أو أندلسية اقتضت طبيعة البحث الاشارة إلى جانب منها في مكانه المناسب وأخيراً فقد تناول البحث جوانب مما انطوى عليه الكتاب من القيمة الأدبية والتاريخية وما احتله هذا السفر –على الرغم من كونه مجلداً واحداً– في المؤلفات والآثار الاندلسية، وكذلك ما امتاز به من السمات الظاهرة الموجزة على صعيد الكتابة الأدبية وما امتاز به اسلوبه في التعبير الأدبي والتاريخي.

وبهذا أرجو الله (ﷻ) أن يتقبل هذا الجهد الذي يهدف إلى التعريف بعالم وأديب ومؤلف من رجال الاندلس، الذين بنوا حضارة أمتنا، وأقاموا صروحها وأسسوا قواعدها على حب العلم وخدمة أهله ابتغاء رضوان الله وتقرباً إليه في خدمة كتابه العزيز وسنه نبيه المصطفى (ﷺ) فأناروا بجهودهم بلاداً كانت تتخبط في دياجير الظلام والظلم والتأخر في شتى جوانب الحياة.

والله المستعان وهو الموفق لكل خير.

اسمه ونسبه:

مُحَمَّدُ بنُ فَتُّوحِ بنُ عْبد الله بن حُميد[1] بن يصل الأزدي الحُميدي، وأبوه يكنى ابا نصر[2].

(1) الحموي، ياقوت، معجم الادباء،، اعتنى بنسخه وتصحيحه مرجليوش، مطبعة هندية بالموسكي، مصر، القاهرة، 1925، جـ 7، ص 58.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان،، تحقيق: د. إحسان عباس، المجلد الرابع، دار صادر – بيروت، 1397هـ/ 1977م، جـ 4، ص 282.

(والحُميدي بضم الحاء المهملة وفتح الميم وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها دال مهملة؛ هذه النسبة إلى جدّه حُمَيْد المذكور، وأخبرني بعض أرباب التاريخ أنه رأى في بعض التواريخ أن نسبته إلى حُميد بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهو ليس بصحيح لأن أبا عبد الله المذكور أزدي النسب، وعبد الرحمن قرشيٌّ زُهريٌّ فكيف يجتمعان؟ ويَصِل: بفتح الياء المثناة من تحتها وكسر الصاد المهملة وبعدها لام)[1].

ويشير عدد من المؤرخين القدامى إلى أن أُصل الحُميدي –في الأندلس– من قرطبة وفيها ولد أبوه ونشأ في ربض الرصافة –وهو أحد أرباض قرطبة المشهورة– وقد كانت قرطبة في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مركزاً مهماً من مراكز الاشعاع العلمي والثقافي والأدبي وموطناً رئيساً للعلماء والأدباء يقصدونها من أنحاء الأندلس ومدنها وحواضرها المختلفة.

أما أبو عبد الله فقد ولد (بالجزيرة؛ بليدة بالأندلس قبل العشرين واربعمائة...)[2].

ولا نكاد نجد في المصادر القديمة ما يحدد تاريخ ودلاته سوى العبارة السابقة التي ذكرها المقرّي، ويؤيدها ما جاء في تذكرة الحفاظ على لسان الحُميدي نفسه حين قال (ولدتُ قبل سنة عشرين واربع مائة)[3].

أما المراجع الحديثة فقد نقلت هذا التاريخ العام غير المحدد سوى مرجع واحد منها ذهب إلى تحديد سنة الولادة بأنها كانت سنة 419هـ، ووفاته سنة 488هـ غير أن الباحث لم يوضح لنا كيف استطاع تحديد التاريخ بهذه السنة وما الأدلة التي اعتمدها في ذلك[4].

---

(1) المصدر نفسه، جـ 4، ص 282، وينظر الضبي: بغية الملتمس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس، طبع في مدينة مجريط بمطبع روض سنة 1882 مسيحية: ص 113.

(2) المقري احمد بن محمد، نفح الطيب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1986، جـ 1، ص 314.

(3) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين، تذكرة الحفاظ، الطبعة الرابعة، دار احياء التراث العربي، بيروت ، جـ 3، ص 1218.

(4) بالنثيا، أنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، تقديم سليمان عطار المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011، ص 248.

يمكن أننا حين نعود إلى المصادر التي ترجمت للحُميدي أو تحدثت عن لمحات من مراحل حياته الأولى وطلبه العلم في وقت مبكر؛ نجدها تذكر عبارة يمكن أن يفهم منها بعض أسباب تحديد تاريخ مولده سنة 419هـ. يقول بعضهم في سياق حديثه عن الحُميدي: (وكانَ يُحْمَل على الكتَفِ للسَّماع سنة 425)[1] ومعنى ذلك انه في أولى مراحل طلبة العلم كان في أوائل صباه؛ وقد يستطيع الباحث تقدير سنه في تلك المرحلة بما لا يزيد على ست سنوات وهي السن التي يمكن أن يتصور معها امكان حمل الصبي إلى حلقة الدرس ليسمع ولا يكون بالإمكان تقدير أبعد من هذه السن لتنافي ذلك مع الحمل على الكتف وصعوبة تصور حدوثه، كما أن تقدير عمره في المرحلة نفسها بأقل من ست سنوات مما يصعب الأخذ به وذلك للإجماع الوارد في المصادر على أنه حمل وسمع سنة 425هـ.

وبهذا امكن ترجيح تاريخ ولادته في سنة 419هـ على غيره، ليكون ما ورد في مصادر التاريخ المشرقي والأندلسي منسجماً مع ما يطمئن اليهِ الباحث في هذا المجال؛ هذا إلى جانب الإجماع المنعقد على تاريخ وفاته في المصادر والمحدد في سنة 488هـ وأنه قد (توفي في ذي الحجة عن نحو سبعين سنة)[2] وإذا طرح هذا الرقم من 488 جاء تاريخ الولادة مقارباً لهذا بحيث يكون قبل 419 أو في أوائلها بأشهر قليلة.

ومهما يكن من أمر الخلاف في سنة الولادة فإنه ليس شيئاً مهماً إلى جانب ما هو مؤكد وثابت من ولادته قبل انتهاء الربع الأول من القرن الخامس ببضع سنين وهو تاريخ فترة الفتنة وابتداء عصر الطوائف حين بدأت قرطبة تتعرض للهجمات والغارات وتفقد قيمتها الثقافية والعلمية والأدبية ويضعف مركزها الحضاري الذي لم يكن معروفاً ومشهوراً على الصعيد الأندلسي فقط وانما كانت شهرتها وسمات مكانتها قد طبقت الآفاق شرقاً وغرباً فضلاً عن الأقطار التي تحيط بشبه الجزيرة الأندلسية.

(1) الحموي، ياقوت، معجم الادباء، جـ 7، ص 58.

(2) الحنبلي، ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، طبعة ثانية منقحة، 1399 هـ/ 1979، جـ 3، ص 392.

وكان مقابل هذا الضعف أو الانحسار نشوء مراكز ثقافية أخرى تمثلت في عواصم دول الطوائف المشهورة التي هاجر اليها العلماء والأدباء ووجدوا التشجيع والعناية من أمرائها مثل اشبيلية وطليطلة وبلنسية وغيرها[1].

نشأته وحياته:

لا تسعفنا المصادر بتفصيلات وافية عن حياة أبي عبد الله ولا عن نشأته سوى اشارات قليلة تتعلق بطلب العلم واقباله عليه في سن مبكرة متردداً على الشيوخ المشهورين في بداية الربع الثاني من القرن الخامس للهجرة مثل اشارة حمله على الكتف للسماع، التي سبق ذكرها وهي إشارة واضحة في النص على التبكير في طلب العلم والحرص على حضور مجالس العلماء بشغف وهمة عالية لتحصيل العلوم التي كان أقرانه يطلبونها وفي مقدمتها كما يرى بعض الباحثين (العلوم الدينية من فقه وحديث)[2]. وهي العلوم التي تشكل الركن الأساس والقواعد الأولى لثقافة المتعلمين الذين تفترق بهم شعب العلم بعد ذلك إلى التخصص في الحديث وعلومه وروايته أو في الأدب وفنونه أو في المنطق وعلم الكلام وما يتعلق بهما...وربما دلت الإشارة السابقة على أن الحُميدي كان يمتاز بذكاء وقوة حافظة وذهن متوقد وقلب ذكيّ مكّنه من المتابعة والاستقصاء ومنحه النفس الطويل في طلب العلم وتحصيله ثم الوصول بعد ذلك إلى درجة عالية من الفهم والحفظ وسعة الإدراك.

وفيما سوى هذه الإشارات القليلة لا يكاد الباحث المتأمل يقف على ما يلقي الضوء على حياة الحُميدي الخاصة أو حتى حياة أسرته ووالده بالذات وما الذي كان يتعاطاه من الحرف وما مركزه في المجتمع أو مكانته العلمية؛ ولهذا فإن الباحث لا يجد بدا من الترجيح والاستنتاج في محاولة رسم خطوط عامة وملامح مجملة للأسرة الحُميدية التي نشأ وترعرع فيها أبو عبد الله، ومن هذا مثلاً تأملنا في انكباب أبي عبد الله وإقباله على

(1) ينظر: عنان، محمد عبد الله، عبد الرحمن، دول الطوائف حتى الفتح المرابطي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1389هـ/1969م 376-408.

(2) أحمد امين، ضحى الاسلام، جـ 3، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1388هـ-1969م ص 279.

العلم وطلبه في سن مبكرة وتفرغه له وقلة انشغاله –إذا لم نقل عدم انشغاله– بغير ذلك من الأمور المعاشية والاجتماعية الضرورية وغير الضرورية حيث يؤدي ذلك إلى استنتاج أن تكون اسرته مرفهة غنية أو انها –على الأقل– لا تعاني من الفاقة والحاجة ما يضطرها إلى صرف أبي عبد الله وغيره من أفراد الاسرة إلى العمل وتحصيل لقمة العيش، وربما استطعنا تأكيد هذا بما وصل الينا من أخبار الحُميدي حول عزمه على الرحلة إلى المشرق في وقت مبكر من حياته وهو لما يتجاوز سن الخامسة والعشرين؛ مما يقوي اتجاه تعلقه بالعلم وحرصه عليه والمداد في طلبه شأن عديد من أترابه العلماء وطلبة العلم الأندلسيين الذين لم يكتفوا بما كانوا يحصلونه في الاندلس بل كانوا يتطلعون إلى أعلام علماء المشرق ليجلسوا اليهم ويأخذوا عنهم، ومعلوم أن الرحلة في طلب العلم كانت عُرفاً سائداً وسمة حضارية مضيئة في حياة الاندلسيين حتى ان المصادر تحدثنا عن أسماء مئات منهم تركوا بلادهم الأندلسية وأهليهم وهاجروا من اجل التحصيل العلمي[1] ومكثوا سنين عديدة في حواضر المشرق الكبرى طلباً للعلم على أن الحُميدي لم يتوقف عن مجرد الهجرة وقضاء فترة من الوقت طالت أم قصرت وانما كانت هجرته هجراً لبلده واستيطان للمشرق حتى وافته المنية ببغداد ودفن فيها بعد أن قضى ما يربو على اربعين عاماً في عاصمة الحضارة ومركز الاشعاع العلمي ومهد العلماء وموطن مجالس العلم والمناظرات والحوار ونشر الكتب والدواوين والموسوعات في شتى علوم القرآن الكريم والحديث الشريف وفنون الأدب والعلوم المختلفة الأخرى.

وتجدر الاشارة هنا إلى ان الأخبار الواردة عن الحُميدي واقامته في بغداد ومجاورته العلماء والفقهاء والرواة والمؤرخين والادباء؛ هذه الأخبار لا تشير إلى أنه تزوج في بغداد فضلاً عن أن تكون له ذرية.

(1) ينظر نفح الطيب فقد عقد المقري فصلاً استغرقت مجلداً وبعض مجلد من كتابه للحديث عن الراحلين إلى المشرق من الأندلسيين ومثل هذا القدر من الكتاب خصصه للوافدين على الأندلس من المشرق. وينظر كذلك مجلة الجامعة –تصدرها جامعة الموصل– في عدديها المتضمنين مقالين في الراحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق والراحلات العلمية من المشرق إلى الأندلس، العددان الأول والثاني، السنة العاشرة، 1979 على التوالي.

وربما كان هذا –على فرض صحته إذا لم يرد ما يناقضه– من أدلة الانشغال الشديد بالعلم والتحصيل وما يتطلبه التدرج العلمي من طالب علم إلى استاذ ومدرس وشيخ له تلامذته ومجالسه ومحاضراته من المداومة على الدراسة والنظر والمتابعة مما قد يجد فيه كثيرون من الشغوفين بالعلم وأهله شاغلاً عن الحياة الأسرية وصارفاً عن التفكير في الاقتران على كثرة ما كانت تزخر به البيئة المشرقية وبغداد بصورة خاصة من النساء اللاتي جمعن بين جمال المظهر والمخبر وكرم الأصل وحسن السيرة ورجاحة العقل مع توفر الظروف الأخرى المشجعة مادية ومعنوية.

ثقافته وعلمه:

يمكن القول –استناداً إلى الأخبار الواردة عن الحُميدي– أن حياته العلمية والثقافية تبدو من خلال فترتين تشكلان في حياته الثقافية الخطوط العامة والملامح الرئيسة في الأندلس والمشرق.

أما أولاهما: فهي فترة اقامته في الأندلس وهي التي تبعت نشأته وصباه فيها يبدو الحُميدي شديد الاقبال على طلب العلم شغوفاً به يتتبع مصادره ويفيد من موارده بالرجوع إلى الشيوخ المشهورين في عصره الذين كان لهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة الاسلامية في ربوع الأندلس والبلاد المجاورة لها ومنها أوربا التي كانت آنذاك تمر بفترة القرون الوسطى كما تسمى في التاريخ الحديث وتورد المصادر العديدة جملة من أسماء الأعلام الذين سمع منهم الحُميدي وتفقه على علومهم وتلمذ لهم (وأَوّل مَن سَمعَ منهُ أبو القاسم بن أصبغُ وتفّقه بابن أبي زيد القيرواني، وروى عَنهُ رسالتَهُ ومختَصَر المدوّنَّة...)[1].

وتورد مصادر اخرى أسماء آخرين من شيوخه وأستاذته (...ومنهم أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد علي بن أحمد وأبو العباس العذري...)[2]. وليس أصدق في هذا من الأخبار

(1) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، جـ 7، ص 58.

(2) الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة، بغية الملتمس، ص 113.

التي يرويها الحُميدي عن نفسه في جذوته ويؤكد فيها أخذه عن أعلام علماء الأندلس في عصره، وينص على ذلك في مواضع كثيرة في سفره القيم[1].

وإذا كانت العبرة بالنوع لا بالعدد فإن شيوخ الحُميدي كان اكثرهم ممن عرف في عصره بالتفوق العلمي مثل أبي محمد بن حزم الأندلسي وابي عمر بن عبد البر اللذين عرفا في الأندلس والمشرق بآثارهما العلمية والأدبية والفقهية وجهودهما في نشر العلم ومتابعة طالبيه، بل ان هذين العالمين الجليلين يعدان من أبرز الشخصيات العلمية المتألقة في القرن الخامس؛ ومؤلفات ابن حزم كالمحلى والأحكام في أصول الأحكام وكتبه في التاريخ والتراجم والأدب والأخلاق وغيرها أكثر من أن تحصى في هذا المختصر، ومثل هذا يمكن أن يقال عن أبي عمر بن عبد البر من حيث مكانته العلمية وآثاره.

يقول بعض المؤرخين مصوراً صلة الحُميدي بابن حزم وطلبة العلم على يديه: (ولازَمَهُ وقَرَأ عليهِ أكثَّر مُصَنفَّاته، وأكثر من الأخذ عنه، وشُهرَ بصحبته وكان على مذهَبَهِ إلاّ أنَّه لم يتظاهر بذلك، ...)[2] وكثيراً ما ترد اشارات صريحة في النص على أن الحُميدي كان تلميذ ابن حزم وكذلك اكد تلك الاشارات عديد من الباحثين مثل قول أحدهم: (وروى عن ابن حزم فأكثر واختص به، وبه عرف وبصحبته شهر فهو تلميذه الخاص)[3] كما يشير باحث آخر إلى أن الحُميدي (لازم ابن حزم وقرأ عليه مصنفاته كلها...)[4].

ونقرأ في ترجمة الحُميدي لأستاذه أبي محمد بن حزم تعريفاً موجزاً بحياته ومؤلفاته وآثاره إلى جانب اشارته في ختام التعريف بوضوح إلى شاعرية ابن حزم وموهبته الأدبية وسمات فنه وعلمه الواسع الذي تعددت جوانبه حيث شملت آفاق الفقه والشريعة والتاريخ والفلسفة والسير...يقول في ذلك: (...وكان له في الآداب والشعر نفسٌ واسع، وباع طويل وما

(1) ينظر عدد من صفحات الجذوة منها مثلاً: ت 43 ص 53، ت 371 ص 2، وكثير غيرها من التراجم التي أشار الحُميدي ضمنها إلى شيوخه المعروفين.

(2) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، جـ 7، ص 58.

(3) الأفغاني، سعيد، ابن حزم ورسالة في المفاضلة بين الصحابة، الطبعة الثانية، دار الفكر، 1969، ص 316.

(4) احمد امين، ضحى الاسلام، جـ 3، ص 279.

رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرعَ منه، وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم...)[1].

وعلى الرغم من أن هذا المجموع لم يصل إلينا على نحو ما أورده الحُميدي فإن إشارته هذه إلى جمع شعر أبي محمد بن حزم تؤكد بوضوح علاقته به وصلته العلمية والأدبية به وتلمذته له.

ونجد في أثناء المصادر الأندلسية ما يشير إلى وجود علاقة بين الحُميدي وعلم آخر من أعلام القرن الخامس في الأندلس هو المؤرخ الكبير الأديب أبو مروان بن حيان المتوفى سنة (463 هـ)، يقول الحُميدي نفسه في التعريف بأبي مروان: (حيان بن خَلف بن حسين ابن حيان أبو مروان القرطبي صاحب التاريخ الكبير في أخبار الأندلس وملوكها، وله حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد ذكره أبو محمد علي بن احمد، وأثنى عليه وأدركناه بزماننا)[2].

ولعلَّ من الواضح ما تشير اليه العبارة الأخيرة إذ تنص بوضوح على معاصرة الحُميدي لأبي حيان حتى وفاة الأخير وقد تكون هي التي اعتمدها بعض الباحثين في تفسير العلاقة بأنها تلميذة وتعلم حين قال: (وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحُميدي المتوفى سنة 488هـ وقد عُنى في معجم تراجمه بترجمة كثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمحدّثين في عصر الطوائف...)[3].

وعلى هذا فلا يستعبد الباحث وجود الصلة العلمية بين الحُميدي وأبي مروان في هذه الفترة من حياة الأول وهي فترة الشباب، أما ضعف الاشارة في كلام الحُميدي نفسه إلى العلاقة بين وبين أبي مروان، فإننا لا نرى انه لم ينص صراحة على تلمذته لأبي محمد بن حزم في حين وجدنا اشارات المؤرخين صريحة في النص عليها وهي تكفي

(1) الحُميدي، جذوة المقتبسفي ذكر أسماء رواة الحديث وأهل الفقه وذوي النباهة، قام بتصحيحه محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة مشر الثقافة الاسلامية، الطبعة الأولى، توزيع مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجي بمصر؛ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ص 309 ت 708.

(2) نفسه، ص 200 ت 397.

(3) عنان، محمد عبد الله، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ص 439.

لتأكيد الصلة وتحديد نوعها وفي هذا السياق يمكن أن ينظر إلى العلاقة بين مؤرخ الأندلس ابي مروان والحُميدي، ويؤيد هذا أن الرجلين تعاصرا في فترة الشباب وكانا من المعنيين بالعلم والأدب المشهورين في مجالس العلم والتردد على شيوخ العصر وأساتذته، كما أن نهج الحُميدي في كتابه الذي اعتمد الإيجاز والاختصار في التراجم بالنسبة لجميع الأعلام الذين ترجم لهم وظروف تأليف الجذوة كل ذلك قد يبرر لابي عبد الله الحُميدي مروره العابر السريع بطبيعة علاقته بأبي مروان بن حيان وربما بطبيعة علاقته بآخرين من المعاصرين الذين عرفوا في ميدان الأدب والثقافة خاصة وأنه قد برّر في مقدمة كتابه اتباعه نهج الايجاز والاختصار حيث بسط ظروف تأليفه الجذوة وما كان يعتريه من التردد أول الأمر خوف الوقوع في تقصير أو تفريط اتجاه أعلام بلده ولكنه حين قدّم الفائدة المرجوة من هذا الكتاب بالنسبة لأهل المشرق؛ تجاوز عن مسألة الانجاز ورأى أنها لا تكاد تعد شيئاً إلى جانب الأهداف التي يرى أن الكتاب يقدمها بالنسبة لأعلام بلده الأندلس ونشر مآثرهم وآثارهم حتى ولو كان ذلك في مجال محدود وقدر معين.

الحُميدي في المشرق:

وتشكل المرحلة الثانية من حياة الحُميدي في المشرق بعد رحلته إليه ويعده الجانب الهام من حياته العلمية والثقافية؛ ونفهم من المصادر أن أبا عبد الله (رحل بعد الأربعين وأربعمائة، فروى بمصر عن جماعة منهم أبو عبد الله بن أبي الفتح وببغداد عن جماعة، منهم: الخطيب أبو بكر صاحب التاريخ) [1].

وتؤكد مصادر أخرى أن هذه الرحلة العلمية كانت رحلة مهمة مرَّ خلالها الحُميدي بأقطار اسلامية عديدة قبل أن يستقر ببغداد ويتخذها موطناً وسكناً، يقول مؤرخ مشهور (ورحل إلى المشرق سنة ثمان وأربعين واربعمائة فحج وسمع بمكة حرسها الله تعالى وبأفريقيا وبالأندلس ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد...)[2].

ولا نكاد نجد مصدراً من مصادرنا القديمة المهمة قد أغفل رحلة الحُميدي والتأكيد على اهميتها العلمية باعتبارها واحدة من الرحلات العديدة التي عبرت عن متانة العلاقة بين

(1) الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس، ص 113.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ 4، ص 317-318.

الأندلس والمشرق من جهة وكذلك دلت على حرص الأندلسيين على طلب العلم وأخذه من منابعه الأصلية حيث مركز الحضارة وموطن الاشعاع الفكري والعلمي بغداد، ولم يكن غريباً بعد هذا أن يحرص مؤرخنا الحُميدي على تلقي العلم من جهابذة العلماء ومشاهير الأدباء ثم يبدأ هو بعد ذلك بالتصنيف والتأليف بعد أن يكون قد حصل على اجازات اولئك العلماء وقرأ عليهم مصنفاتهم وحذق مسائلها وفنونها يقول بعض المؤرخين في جانب من حديثه عن الحُميدي وشخصيته العلمية والأدبية وجهوده في تعلم العلم وتعليمه: (سمع بأفريقية ودمشقَ، وأقام بواسطَ مدَّة ثم رجع إلى بغداد واستوطنها وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنفاته...)[1].

وإذا كان هذا الخبر الذي يرويه مؤرخ مشرقي معروف ومشهور لا يكاد يشكل سوى عرض بسيط موجز لجانب من حياة أبي عبد الله في المشرق؛ فإن واقع حياة الحُميدي والآثار التي أشار إلى أسمائها المؤرخون مشارقة واندلسيون، يدل ذلك كله على سعة علمه وشدة اقباله على طلب بمتابعة المشهورين من شيوخ العصر في المشرق ممن قُدِّر له الالتقاء بهم ومن هذا كله نستطيع القول بأن القسم الثاني من حياة الحُميدي في المشرق قد تمثلت فيه شخصية العالم الناضج هو المثقف المرموق والاستاذ والشيخ المعلم الذي يجلس اليه طلبة العلم ويأخذون عنه وذلك ما تؤكده مصادر التاريخ التي عنيت بتراجم العلماء والشيوخ والمحدثين وبخاصة منها ما كان معنياً برواة الحديث ومترجمي الجمال؛ يقول أحد الكُتّاب ضمن التعريف بالحُميدي على انه أحد رجال الحديث الأثبات وكتّاب التاريخ المشهورين فيذكر عدداً ممن تلمذ لأبي عبد الله ونسب إليه بالعلم، يذكر منهم (يوسف بن أيوب الهمداني الزاهد، ومحمد بن طرخان، وأبو عامر العبدري وإسماعيل بن محمد الطلحي و محمد بن علي الجلابي والحسين بن الحسن المقدسي وأبو عبد الله الحسين بن نصر ومحمد بن خميس والحافظ محمد بن ناصر واسماعيل بن السمرقندي...)[2].

(1) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، جـ 7، ص 59.

(2) الذهبي، الإمام أبو عبد الله شمس الدين، تذكرة الحفاظ، جـ 3، ص 221.

كل هذا يوضح لنا أهمية الفترة التي قضاها الحُميدي من حياته في المشرق تلك الفترة التي امتدت ما يقارب من أربعين عاماً بين تاريخ رحلته سنة (448هـ) وحتى وفاته سنة (488هـ)، متنقلاً بين عواصم الثقافة والعلم والأدب والتاريخ حتى استقر به المطاف في عاصمة الثقافة والعلم والأدب بغداد ويحتل فيها مكانة مرموقة في ميدان العلم والأدب وفي مهنة التدريس ونشر العلم إلى جانب التأليف والتصنيف الذي بلغ عدداً كبيراً فضلاً عن اهمية تلك المؤلفات من الوجهة النوعية وذلك ما نحاول الاشارة إليه في خطوط لماحة مختصرة في السطور القادمة ضمن دراسة مؤلفاته وآثاره التي يفهم من يلقي النظرة العاجلة عليها سعة ثقافة الرجل وطابع العلوم التي حصلها مما رشحه إلى أن ينال بحق وجدارة ما وصفه به المؤرخون بأنه محدث حافظ مؤرخ أديب.

مؤلفات وآثاره:

وإذا كان أبو عبد الله على ما أشرنا من الاطلاع والفهم والدراية والمقدرة العلمية والثقافية والأدبية فإننا نحاول الوقوف على دلائل هذه المكانة وتلمس جملة من ثمراتها وخلاصات جهود أبي عبد الله فيها بما يتناسب وفترة تزيد على نصف قرن من الزمن قضاها في الجد والعمل والمثابرة في مسيرة علمية نافعة؛ وهكذا فإن المصادر التي ترجمت لأبي عبد الله الحُميدي ذكر عدداً من المؤلفات التي أنجز تأليفها في بغداد ضمن اقامته في المشرق يقول بعضهم: (وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وصنّف مصنّفات كثيرة وعلق فوائد وخرّج تخاريج للخطيب وغيرها...)[1].

ونقرأ في مصدر آخر قائمة من الكتب التي ألفها أبو عبد الله وهي:

1. جذوة المقتبِس في ذكر ولاة الأندلس.
2. تاريخ الاسلام.
3. الأماني الصادقة.
4. تسهيل السبيل إلى علم الترسيل.
5. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم.
6. كتاب ذم النميمة.

(1) المقري، احمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب، جـ 1، ص 314.

7. الذهب المسبوك في وعظ الملوك.
8. كتاب ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار.
9. مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء.
10. كتاب من ادَّعى الأمان من أهل الايمان[1].

وتورد مصادر أخرى مجموعة ثانية من مؤلفات الحُميدي إلى جانب ما ذكر آنفاً ومنها:

1. المتشاكه في أسماء الفواكه.
2. بُلْغة المستعجل.
3. التذكرة.
4. أدب الأصدقاء. وكتاب (ترسل مخاطبات الاصدقاء)
5. تحفة المشتاق في ذكر صوفية العراق.
6. المؤتلف والمختلف.
7. وفيات الشيوخ.
8. نوادر الأطباء.
9. ديوان شعرهِ[2].

وهذه المؤلفات التي لم يصلنا أكثرها دلالة واضحة على ثقافة الحُميدي وسعة علمه مما يكن حصره في الخطوط العامة الآتية:

1. الموضوعات الاسلامية والأخلاقية والعلاقات الاجتماعية.
2. التاريخ والتراجم والسير ومنها كتاب الجذوة موضوع البحث.
3. فنون الأدب من شعر ونثر[3].

وعلى الرغم من أن هذه الخطوط العامة تشكل قواعد وأصول الثقافة العربية الاسلامية في العصور المختلفة؛ إلا أن الباحث المتأمل لا تفوته ملاحظة غلبة الطابع الفقهي الاسلامي

(1) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الادباء، جـ 7، ص 59، وتنظر مقدمة الطبعة الأولى من الجذوة، للأستاذ محمد بن تاويت، ص 2.

(2) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية، باعتناء هلموت ريتر، 1381هـ-1961م ، جـ 4، ص 317-318.

(3) مقدمة الناشر لكتاب الجذوة، ص 2، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، سنة 1966.

وطابع التاريخ على المؤلفات إلى جانب علم الحديث والرواية وما يتعلق بهما من علوم فرعية أُخرى تخدم هذا العلم وتتصل به في نطاق السنة النبوية المطهرة وما تقوم عليه من أقوال الرسول (ﷺ) وأفعاله وتقريراته.

يذكر واحد من المؤرخين القريبين من عصر الحُميدي ضمن الترجمة له والتعريف به، ما يؤكد اتجاه الحُميدي هذا وشهرته العلمية وسعة علمه بالحديث وعلومه فيقول: (...وأخَبَرنا القاضي الامام بلفظه، قال: سَمعِتُ أبا بكر بن طَرْخاَن ببغداد يقول: سَمعتُ أبا عبد الله الحُميدي يقول: ثَلاثَةَ أشياء من علوم الحديث يجب تقديم التهم بها؛ كتب (العلل) وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الدار قطني، وكتاب المؤتلف والمختلف، وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الأمير ابن ماكولا، وكتاب وفيات الشيوخ وليس فيه كتاب، وقد كنتُ أردت أن أجمع في ذلك كتاباً فقال لي الأمير: رتبه على حروف المعجم بعد أن ترتبه على السنين)[1].

ويشير مؤرخ آخر ممن ترجموا للحميدي إلى تخصصه في الحديث وصفاته التي أهلته أن يكون من علمائه المدققين وشيوخه العارفين فيقول: (وروى عنه الأمير الحافظ الأريب أبو نصر علي بن ماكولا وقال: أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحُميدي وهو من أهل العلم، والفضل والتيقظ لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم، وقل بعض أكابر عصره ممن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحُميدي في فضله ونبله ونزاهته وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله وكان ورعاً ثقة إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته محققاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث متبحراً في علم الأدب والعربية...)[2].

ويؤكد هذه المعاني واحد ممن أدركوه وأخذوا عنه ونقلوا الكثير عن كتاب الجذوة بقوله: (وكان، رحمه الله، نسيج وحده حفظاً ومعرفة بالحديث ورجاله)[3].

وعلى النهج نفسه نجد المصادر الأندلسية والمشرقية تصنف الحُميدي بأنه مؤرخ يعتمد عليه المؤرخون المعنيون بالتاريخ الأندلسي بخاصة، والتاريخ الاسلامي بعامة وينقلون عن

(1) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م ، ص 82 ت 30، القسم الثاني، ص 561.

(2) الحموي، ياقوت، معجم الادباء، جـ 7، ص 60.

(3) الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة، بغية الملتمس، ص 113.

كتابه الجذوة في صفحات ومواضع عديدة من مؤلفاتهم حتى قال أحدهم عنه بأنه: (...الشيخ الفقيه المحدّث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحُميدي...)[1].

ويصفه مؤرخ آخر متأخر عن السابق في الزمن بقوله: (وكان دؤوباً على الطلب للعلم كثير الاطلاع، زكيّاً فطناً رصيناً ورعاً اخبارياً متقناً كثير التصانيف حجة ثقة رحمه الله تعالى...)[2].

وهذه شهادة واضحة تؤكد مكانة الحُميدي وصفاته العلمية والتاريخية كما تؤكد ممارسته كتابة التاريخ والتأليف فيه حتى عُرف واشتهر في الأوساط التاريخية المشرقية وعلى ألسنة الأعلام من المشارقة الذين عرفوا بمكانتهم التاريخية والعلمية من امثال الحنبلي الذي وصف الحُميدي بقوله: (...صديقنا أبو عبد الله الحُميدي من أهل العلم والفضل ورد بغداد، وسمع أصحاب الدارقطّني وابن شاهين وغيرهم، وسمع منهُ خلق كثير وصنَّف (تاريخ الأندلس)، ولم أرَ مثله في عفته ونزاهته)[3].

ولكن المؤرخ المذكور الذي ينقل كلام ابن ماكولا –صديق الحُميدي–؛ لم يذكر شيئاً عن طبيعة التأليف المشار اليه في تاريخ الأندلس.

ولا أرى أن يكون المقصود بكتاب تاريخ الأندلس: كتاب الجذوة نفسه على الرغم من احتوائه أمور تاريخية عامة وأحداثاً معينة رُوعيَ فيها تسلسل الزمني منذ الفتح وحتى القرن الخامس فضلاً عن التراجم التي ضمت اشارات ودلالات تاريخية تعود إلى مختلف الأمكنة والأزمنة والأشخاص.

ذلك أن قائمة مؤلفات الحُميدي تحتفظ بعنوان كتاب تاريخ الاسلام إلى جانب احتفاظها بعنوان كتاب جذوة المقتبس، مما يؤكد القول بأن العنوانان يمثلان كتابين مختلفين، وأن كتاب تاريخ الاسلام ربما كان في تاريخ الاسلام العام أو خاصاً بأهل

(1) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب، طبعة لجنة احياء التراث، 1383هـ/1963م ، ص 72–73.

(2) الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، جـ 3، ص 392.

(3) الأتابكي، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكُتب مع إستدراكات وفهارس جامعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، ج.م.ع ، جـ 5، ص 156.

المشرق ليكون تذكرة لأهل الأندلس يطلعون من خلاله على مزيد الأخبار والأحداث المشرقية، أما كتاب الجذوة فهو –كما سيأتي– خاص بأهل الأندلس أوجز فيه الحُميدي تاريخ تلك البلاد وتطرق إلى التعريف بالبارزين من أعلامها في فنون مختلفة من العلم والأدب وأما ما ورد فيه من اشارات إلى أعلام من أهل المشرق فلا يتجاوز الالمام الموجز السريع بما يحتاجه الحديث ويستدعيه المقام.

وبهذا يكون من التجوز الكبير والتوسع الذي لا داعي له ولا ضرورة تدفع إليه تسمية كتاب الجذوة بتاريخ الأندلس كما فعل بعضهم معتمداً على ما اشرنا إليه من محتويات كتاب الجذوة في الأمور التاريخية التي جعلها المؤلف مقدمة أو مدخلاً لكتابه ليكون ما يورده من أخبار الأدب والعلم والعلماء معتمداً على تسلسل زمني ومعالم من الشخصيات والمواقع ذات الصلة المباشرة بموضوعات الكتاب وأهدافه الرئيسة، خاصة وأننا لا نجد بين أيدينا إشارة حركية تؤكد هذا وتدفع إلى اقراره.

الحُميدي أديباً:

يبدو من العرض الموجز لثقافة الحُميدي ومكانته العلمية وما كان يمتاز به من السعة والشمول لعديد من علوم الشريعة والعربية؛ أن الأدب كان يشكل جانباً هاماً من جوانب ثقافة أبي عبد الله ولا يبدو ذلك فيما وصفه به المؤرخون واصحاب التراجم والسير فحسب، وانما يبدو واضحاً في الآثار النثرية والشعرية التي احتفظت بها المصادر الاندلسية والمشرقية له، وإذا أردنا أن نبدأ الحديث عن سمات أدبه وقدمنا النثر على الشعر لم نجد ما يسعفنا في ذلك من آثاره ونصوصه النثرية سوى ما ورد في كتاب الجذوة أو كتاب تسهيل السبيل إلى علم الترسيل والكتاب الأخير ما يزال مخطوطاً لم استطع الوقوف عليه[1].

أما كتاب الجذوة فقد تضمن جملة وافرة من تراجم العلماء والأدباء المشهورين في الأندلس ولا يصعب على المتأمل فيها ملاحظة الأسلوب الذي اتبعه الحُميدي وسماته الفنية والأدبية؛ وفي مقدمة تلك السمات: السهولة والوضوح فلا يكاد القارئ يجد صعوبة أو

(1) أشرت في ص 2 إلى قيام أحد الطلبة المغاربة بدراسة الكتاب وتحقيقه في رسالة ماجستير في جامعة القاهرة.

توعراً في التعبير سواء على صعيد العبارات أو الألفاظ، فهي سهلة واضحة قريبة الفهم يبدو قصد المؤلف فيها مركزاً ومؤكداً على وضعها بين يدي القارئ أو السامع دون الاخلال بالمعنى.

ويلاحظ في اسلوب الحُميدي أيضاً أنه يجنح إلى الايجاز والبعد عن الاسهاب الممل، وقد يكون من أسباب ذلك كثرة التراجم التي استوعبها الكتاب أو الظروف التي أحاطت بالمؤلف وهو بعيد عن موطنه الأندلس.

ومن أمثلة هذه التراجم قوله ضمن ترجمة أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلس (...وكان لأبي عُمر بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانته وصيانته، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نَفاق؛ فَسادَ بعد خمول، وأثرى بعد فقْر وأشير بالتفضيل إليه إلا أنه غلب الشعر عليه...)[1]. ثم يورد بعد هذا نماذج من شعر ابن عبد ربه في أغراض مختلفة.

ويبدو الطابع الأدبي في ثقافة الحُميدي من خلال اختياره للأعلام الذين ترجم لهم والنماذج التي أزردها من آثارهم الأدبية، والمتتبع لكتاب الجذوة يقف على عدد كبير من أعلام الأدب الذين ترجم لهم كما يقرأ مجموعات وافرة من أشعارهم في أغراض وموضوعات مختلفة ركز فيها على ما اشتهر به كل منهم وجدير بالذكر أن هذه الظاهرة لا تقتصر على مؤلفات الحُميدي وحده أو على جذوته فقط، وانما تلاحظ في العديد من المؤلفات الأندلسية التي اعتمدت على الجذوة وأخذت عنها مثل بغية الضبي وصلة ابن بشكوال وذخيرة ابن بسام، وإن كانت الأخيرة تمتاز بالسعة والتفصيل والاستطراد في عرض التراجم والنصوص الأدبية شعراً ونثراً مع الأحداث التاريخية المناسبة ومهما يكن فإن تراجم الحُميدي في جذوته أو ما أورده في مؤلفات أخرى دليل واضح على مَلَكة الحُميدي الأدبية وموهبته التي مكنته من التعريف الموجز بأعلام الثقافة مع القدرة على الاختيار الناجح لنصوص من أشعارهم في الأغراض المختلفة المتنوعة، ومعلوم أن الحُميدي في هذه التراجم لم يقف عند ايراد النص وانما كان له سهم واضح من قلمه

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، ص 101، ترجمة 172.

وأسلوبه وموهبته في التعليق عليها أحياناً أو محاولة الموازنة بينها وبين نصوص مماثلة لها في المشرق غرضاً وموضوعاً أو خصائص وسمات.

ومن أقواله في مقدمة حديثه عن افتتاح الأندلس حين عرض لأسباب تأليف الجذوة: (...على أني أَعلم أن هذا المقصد الذي سبق إلى تقييده المؤرخون من أسلافنا وتلاهم التابعون لهم في ضَبطه من أخلافنا؛ جَمَّ الفائدة عظيم العائدة، لما فيه مما لا يخفى على مُتميز إلى جهة من جهات المعرفة متحيز، ولحرصي على قبول هذا التنبيه، وإن قلَّ ما عندي فيه؛ بادرت إلى جمع المفترق الحاضر، واخراج ما في الحفظ منه وإتعاب الخاطر، رجاء الثواب في تنويه بعالم، وتنبيهٍ على فضل فاضل وتوقيفٍ على غَرَضَ، وتحقيق لنَسبٍ أو خبر ولا يخلو ان يكون في اثناء ذلك زيادة علم تُقتنى، أو ثمرة أدب وشعر تُجْتنَى)[1].

الحُميدي شاعراً:

على أن من أبرز ما يستطيع الباحث اتخاذه دليلاً على موهبة الحُميدي الأدبية وملكته وطبعه؛ ممارسته نظم الشعر، فقد أوردت المصادر مجموعة من الأبيات المنسوبة إليه؛ نحاول بتوفيق الله وعونه عرضها هنا والنظر في سماتها من حيث الأغراض والموضوعات والاشكال والأساليب وعلاقة ذلك بحياته وثقافته وشخصيته أولاً وبيئته الاندلسية ثانياً.

يقول أبو عبد الله الحُميدي بما احتفظت به المصادر من شعره:

لقاءَ النّاس لَيسْ يُفيدُ شيئاً سِوَى الهَذَيَان مِنْ قيلٍ وقالِ
فَأقللْ مِنْ لِقاء النَّاس إلَّا لأخْذِ العِلْمِ أو لِصَلاحِ حالِ[2]

والمعنى –كما لا يخفى– ذو صلة قوية بالمجتمع والعلاقات الاجتماعية كما أنه صورة لنفسية أبي عبد الله الحُميدي، تلك النفسية التي تنزع إلى طلب العلم وحبه والتعلق به

(1) الحُميدي، جذوة المقتبس، ص 2.

(2) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الله، الصلة، القسم الثاني، ص 561، وينظر الحموي، معجم الأدباء، جـ 7، ص 60.

والبعد –مقابل ذلك– عن مجالس اللهو وقضاء الوقت في غير فائدة ترجى لعلاج مشكلة فردية أو اجتماعية أو علم ينفع الانسان ومجتمعه وبهذا يثبت أبو عبد الله الدور الذي يرى أنه يتوجب عليه أداؤه في المجتمع وهو دور ايجابي فاعل لا يقف بعيداً منعزلاً ولا يغرق في القضايا والمشكلات حتى يذوب فلا تكون له شخصية أو كيان أو دور مهم.

وقد يدلّ البيتان أيضاً في الجانب الفني والادبي على أسلوب الحُميدي الذي أشرنا سابقاً إلى أنه يتسم بالسهولة والوضوح مع جودة السبك وحسن الرصف بعيداً عن التصنيع اللفظي والتكليف البلاغي الذي عرف في المشرق أولاً ثم انتقلت عدواه إلى أساليب أهل الاندلس وتعابيرهم وهناك أبيات أخرى يؤكد فيها الحُميدي دعوته إلى طلب العلم والحث عليه والصبر على مصاعبه وذلك في صورة تكاد تكون خالصة لهذا المعنى ولكنها مع ذلك ليست بعيدة عم المجتمع:

مَـنْ لَـمْ يْكُـن للعِلْـمِ عنـد فنائـه أرجَ فـــإن بَقـــاءَهُ كفنائـــهِ
بـالعلِمْ يّحيَـا المـرءُ طـولُ حَيّاتِـهِ وإذا انقضـى أحيَـاه حُسَـن ثنائـهِ[1]

ولا تخفى صلة هذه الأبيات بالمجتمع فهي تربط العلم بما يكون له من آثار وأبعاد في حياة الناس تنشر بينهم آثار كما ينتشر العرف الطيّب.

ونقرأ في شعر الحُميدي مجموعة أخرى ذات معان تختلف إلى حدّ ما عن معاني الأبيات السابقة، غير أنها تؤكد جانباً من جوانب شخصية الحُميدي؛ إنه جانب الزهد والورع، ذلك الجانب الذي أشارت بذكر عبارات المؤرخين الأندلسيين والمشارقة في مواطن عديدة من تراجمهم التي أوجزها في التعريف بالحُميدي وذلك على نحو ما سبقت الاشارات الصريحة إليه.

ومن هذه الأشعار أبيات يعلن فيها أبو عبد الله عقيدته الراسخة ويقينه الثابت بالله تعالى، ويوضح النهج الذي يراه في النظر إلى امور الشرع والموقف السليم الذي يتوجب على المسلم اتخاذه دون المواقف الأخرى التي تخالف عقيدته، وهذا الموقف يقوم على اعتماد

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي والوفيات، جـ 4، ص 318.

الكتاب الكريم والسنة المطهرة باعتبارهما الأساس المتين والركن الركين في أمور الاعتقاد والتشريع والسلوك وسائر المعاملات وشؤون المجتمع:

كَـــلَامُ الله عَـــزَّ وجَـــلَّ قَـــولي ومـــا صَـــحَّتَ بـــه الآثـــارُ دينـــي
ومـــا اتَّفَـــقَ الجميـــعُ عليـــه بَـــدءاً وَعَـــوْداً فهـــو عَـــنْ حَـــقّ مُبـــينِ
فَـــدعْ مـــا صـــدَّ عـــن هـــذا وهـــذا تَكُـــنْ منهـــا علـــى عـــين اليقـــينِ

وليس من شك في أن هذه القصيدة التي تستفاد من هذه الأبيات[1] هي عقيدة السلف الصالح من أهل السنة والجماعة وتمثل في الوقت نفسه رأي جمهور علماء الأمة في القرون المفضلة الأولى.

على أن ابا عبد الله الحُميدي لا يكتفي بتأكيد مبدأ الاعتماد على الكتاب والسنة وانما يشير كذلك في البيت الثاني إلى وجوب اعتماد ما أجمع عليه الصحابة في الصدر الأول، إذ هم العدول الأثبات في أقوالهم وأعمالهم وهم النجوم التي يهتدى بها دائماً والمثل العملية العليا لأحكام القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم (ﷺ)، وقد شهد لهم القرآن بذلك في مواطن عديدة كما نرى أن الحُميدي ينطلق أيضاً في أبياته من النهج الذي أكده الرسول (ﷺ) بقوله: (...وقد تركت فيكم ما إن من اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً؛ كتاب الله وسنة نبيه...)[2]. هذا بعد نزول القرآن الكريم مؤكداً في آيات كثيرة على وجوب اتباع الله وطاعة رسوله (ﷺ).

وكأن أبا عبد الله قد رأى أن الاقتداء بالصحابة –رضي الله عنهم– بعد رسول الله (ﷺ) من الأمور التي تحتاج دوماً إلى تأكيد وتذكير بتعظيم أقدارهم واظهار فضلهم امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله في وجوب تجنب كل ما يؤدي إلى ثلم مكانتهم ويسيء إلى سمعة أحد فيهم وسيرته؛ فهم أئمة الهدى وأعلام التقى، بهم وصل القرآن الكريم الينا وعنهم نقلت سنة رسوله، وبجهودهم انتشر الاسلام وعلا شأنه حتى وصل إلى آفاق بعيدة فأنار القلوب

(1) الحموي، ياقوت، معجم الادباء، جـ 1، ص 60.

(2) هارون عبد السلام، تهذيب سيرة بن هشام مؤسسة الرسالة، بيروت، ط17، 1408هـ/1988م ، ص 52.

وحرّر العقول وأقام النفوس على الهدى والنور وبلغ بها مدارج العز والمنعة؛ يقول أبو عبد الله:

كـلُّ مَـنْ قـالَ فـي الصـحابةِ سـوءاً فاتَهْمـــه فـــيّ نَفْســـهِ وأبيـــهِ
وأحـــقَّ الأنّـــام بالعـــدل مَـــنْ لـــم ينتقصـــهم بمنطـــق مـــنْ فيـــهِ
وإذا القَلـــبُ كـــان بـــالودَّ فـــيِهم دلَّ أن الهُـــدَى تكامـــل فيـــه[1]

ولا يخفى أن الحُميدي يعرض بهذا إلى مبدأٍ عظيم موقف سليم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ذلكم هو موقف الودّ لهم والتقدير لمكانتهم والاعتراف بفضلهم وتجنب كل ما يسيء إلى أحد منهم بأي شكل وبأية صورة.

وهذا –كما هو معروف مشهور– نهج جمهور علماء الامة الاسلامية لم يخالفهم فيه سوى جاهل أحمق أو جاحد مغرور قد ران على قبه ظلام من الجهل والحقد والضلال البعيد.

وفي مجموعات الحُميدي الشعرية أبياتُ توضح لنا نفسية أبي عبد الله وخلقه وعمق يقينه بالله (ﷻ)، مما يندرج في أصول العقيدة الصحيحة السليمة وفي النهج المستقيم والزهد الحقيقي المشروع، يقول:

طَريـــقُ الزُهَـــدِ أفَضـــل مـــا طريـــق وتقـــــوى الله باديـــــة الحقـــــوق
فثِـــقِ بـــــالله يكفـــكَ واســـتعنه يعنـــــك وذر بنيـــــات الطريـــــق[2]

وبهذا يعبر الحُميدي عن فهمه الصحيح الواضح لمعاني الزهد الحقيقي المشروع الذي ينظر إلى الدنيا بما تستحقه من قيمة كما ينظر إلى الآخرة بما تستوجبه من النظر الايجابي الجاد والعمل الدؤوب بعيداً عن عزلة الناس ومجافاة الحياة القائمة على البناء والعمران والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله.

ونصل إلى مجموعة أخرى من أشعار الحُميدي؛ ربما كان موضوعها يختلف عن معاني موضوعات الأبيات السابقة أو عن الموضوع الأساس الذي يجمع بينها. هذه الأبيات

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، جـ 4، ص 318.
(2) الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين بن محمد، تذكرة الحفاظ، جـ 3، ص 1218.

تعرض جانباً شخصياً فردياً يتعلق بالحُميدي نفسه وفي مرحلة من مراحل حياته؛ انها تمثل حياة البعد عن الوطن الأم وفراق الأهل والأحبة بسبب كثرة التنقل والسفر إلى البلاد النائية حتى صار الفراق أليفه والبعد حميمه بدل الأحبة والأعزاء من الأهل والأصدقاء؛ يقول في هذه الأبيات:

أَلَفْتُ النَّوى حَتىّ أَنسْت بوحشتي وصرتُ بها لا بالصَّبابة مُوْلعَا
فلمْ أحُصِ كم رافقته مِنْ مرافقاً ولم أحُصِ كمْ يَممتُ في الأرض موضعاَ
ومَنْ بعَد جَوْب الأرضِ شِرقاً ومغرباً فلا بَدّلي من أن أوافي مَصْرَعَا[1]

وربما استطاع الباحث تقدير وقت نظم هذه الأبيات بإقامة الحُميدي في بغداد بعد أن شرّق وغرّب وأقام ورحل، وفي أواخر أيامه، كما تشير الأبيات بصراحة ووضوح إلى أنه لم يبق بعد جوب الآفاق والسفر الطويل والتنقل المستمر سوى النهاية المحتومة التي لابد منها لكل حيّ من المخلوقات والانسان. ونفهم كذلك ما كان يعاني منه الحُميدي من الحسرة الشديدة على ما فات من أيام العمر وهي ظاهرة عامة لا تتوقف عند الشعراء والأدباء فقط.

ويمكن للباحث أن يلتمس دلالة عامة أخرى تفيدها الأبيات وهي : اهمية الرحلة في حياة الأندلسيين وأثرها في نفوسهم وصلتها بعقولهم وأخلاقهم، ونتائج ذلك كله على المجتمعين الأندلسي والمشرقي؛ ويتضح هذا إذا تذكرنا أن الرحلات بين المشرق والأندلس –لطلب العلم وما يتعلق به– قد شغلت مكاناً بارزاً في حياة الأندلسيين وعُنيت بتسجيلها المصادر الأندلسية والمشرقية وفي مقدمتها كتاب المقري/نفح الطيب، ومن قبله الجذوة نفسها يجد الباحث المتأمل فيها أسماء وأخبار مئات من الراحلين الأندلسيين إلى المشرق أو العكس[2].

كتاب جذوة المقتبِس:

(1) الحموي، ياقوت بن عبد الله، أبو عبد الله، معجم الادباء، جـ 7، ص 60.

(2) ينظر المقالان اللذان سبقت الاشارة اليهما، الرحلات العلمية من الاندلس إلى المشرق والرحلات العلمية من المشرق إلى الاندلس في العددين الاول والثاني من مجلة الجامعة، السنة العاشرة، 1979.

هذا هو الكتاب الذي وصل الينا مطبوعاً من مؤلفات الحُميدي الكثيرة، وكان من أهم أساب شهرته ودلالة فضله وعلمه وسعة اطلاعه وذكائه وقوة حافظته، وعنوان الكتاب (جذوة المقتبِس في ذكر ولاة الأندلس) وقد يضيف بعضهم إلى هذا العنوان: (واسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر)[1].

أما الجزء الأخير من العنوان فقد ذكره الحُميدي في مقدمته لكتابه ولعلّه قد اراد به تعريف محتويات الكتاب وموضوعاته فهي لا تخرج عن أخبار الفقه والأدب والشعر وأعلام هذه الفنون من ذوي النباهة والفضل والعلم.

غير أن العنوان الموجز هو الشائع المعروف في أوساط المؤرخين والأدباء في العصور المختلفة، ولعلَّ ذلك للاختصار خاصة وأن العنوان المختصر هذا قد عبّر عن موضوعات الكتاب واستوعب الغاية التي ألّف من أجلها.

ومن النظرة الأولى في الكتاب بعد التأمل في مدلول عنوانه يتبين أنه عرض موجز لأحوال ولاة الأندلس أو ما يمكن تسميته بالتاريخ السياسي للأندلس منذ الفتح حتى عصر المؤلف، أو تاريخ اقامته بالأندلس. أي حوالي سنة (448هـ) وتكاد هذه المختصرات تشكل مقدمة الكتاب بالنسبة لما يأتي بعدها من المادة العلمية التي تغطي القسم الأكبر من مساحته، وهي عبارة عن تراجم مختصرة لمشاهير العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وغيره ممن يشملهم مصطلح –ذوي النباهة– الوارد في مقدمة المؤلف أو عنوان الكتاب وتبدو عناية المؤلف بثقافة المترجم له ولمحات من جوانب حياته وشخصيته إلى جانب الايجاز الشديد لآثاره ومؤلفاته وذكر نماذج من أشعاره، مع ما يتضمن ذلك كله من اشارات إلى الأحوال الاجتماعية والسياسية وغيرها.

وأما الدافع إلى تأليف الكتاب فيمكن الوقوف على جوانب منه بالتأمل في جملة من أقوال المؤلف نفسه ومنها قوله: (...أما بعد فإن بعضَ من التزم واجبَ شكره عليَّ جميلُ بَرِه، لمَّا وصلتُ إلى بغداد وحصلتُ من إفادته عليَّ أفضل مستفاد، نبّهني على أن أجمع ما يحضرني مِنْ أسماء رَواة الحديث بالأندلس، وأهل الفقه والأدب، وذوَي النَّباهة والشعر

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، مقدمة المؤلف، ص 1.

ومن (لـه) ذكرٌ منهم، أو ممن دخل اليهم، وخرج عنهم في معنى من معاني العلم والفضل، أو الرياسة والحرب...)[1].

ويعقب الحُميدي على طلب صاحب الفضل الذي أشار إليه بتعقيب معبّر عن روح علمية تتحرى الدقة وتحرص على اتباع النهج العلمي الصحيح المعتمد على المصادر والمراجع والتثبت من صحة الأخبار والمعلومات التي يريد الاستعانة بها في اخراج مؤلفه إلى حيز الوجود، وهي أمور لازمة في كل بحث أو تأليف يقوم به باحث أو طالب علم، ولا يتردد– استناداً إلى هذه القواعد–أن يعلن عن حاجته الماسة إلى الأدوات والوسائل الكاملة لإنجاز مشروعه العلمي الهام؛ فيقول بأسلوبه الصريح الواضح، المتسم بالسهولة واليسر والايجاز والبعد عن التكلف والصنعة مع العلم أن النص ألتزم فيه السجع:

(فأعلمتُهُ ببعْدِي عن مكان هذا المطلوب، وقلّة ما صحبني من الغرض المرغوب، وإني إن رُمته على قلّة ما عندي، وتعاطيتُه على انقطاع مواديَّ وبعدي لم اخل من أحد وجهينِ: إما أن أبخس القوَّم حظهم وأنقَصَهم (فضلهم)، فاتعرضَ للائمتهم فيما أوردت، وأقف موقف الاعتذار فيما له قصدت، وإما أن أوهم من رأى قلَّة جمعي، ونهاية ما في وسُعي أنه ليس من اهل الفضل في تلك البلاد إلا نَزْر من الأعداد، فأكون بعد احتفالي لهم قد قَصَّرتُ بهم، وعند اجتهادي في ذكرهم قد أخلَلْتُ بفخرهم، وما أراني مع ذلك إلا مُتصدياً لمذَّمِة الطائفتين منتظماً لتتبع الفرقتين...)[2].

وهذا –فيما نرى– غاية ما يصل إلى فهمه وتصوره الباحث العلمي النزيه من مقومات المنهج السليم والتواضع والوضوح والصراحة مع حسن التقدير للأمور وسلامة المنطق واستقامة الحجة دون مواربة أو تشويش، أو تردد أو غموض.

ولعلَّ من تمام هذا المنهج ودلائل سلامته وقوته ووضوحه أن الحُميدي يعقب على هذا بإشادته بعلماء بلده –الأندلس– وذكر مآثرهم وجهودهم العلمية والثقافية والأدبية، ويخص بالذكر منهم طائفة من مشهوريهم كابن حزم وابن عبد البر وابن حيّان من المؤرخين، ويلمح إلى أنه لو حضرته جوانب وافية من آثارهم وسمات ثقافاتهم، واقتصر على في ذلك

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، طبعة الدار المصرية، ص 1.

(2) الحُميدي، جذوة المقتبِس، طبعة الدار المصرية، ص1– 2.

على الأعيان وخذف التكرار؛ لاستطال البحث وامتد التأليف إلى مساحة كبيرة يصعب جمعها واخراجها في ظل الظرف الذي كان يعيش فيه، ولم يفضل الاشارة إلى أنه قد سبقه في هذا النوع من التأليف علماء آخرون من أمثال الذين ذكرهم وآخرين غيرهم ولا يخفى ما في هذا من دلالة التواضع العلمي والأمانة العلمية ومع ذلك كله فإنه أقدم على التأليف تلبية لرغبة من طلب إليه انجازه واداءً لحق قومه عليه وهو في المشرق معتمداً – بعد الله تعالى– على ذاكرته وما تعبه من محفوظه الكثير في الأخبار والأشعار، والسنين والحوادث من عاصره أو سمع به من الثقات ذوي التحري والضبط وصدق القول واستقامة الخلق يقول في هذا:

(...على أني أعلم أن هذا المقصد الذي سبق إلى تقييده المؤرخون من أسلافنا وتلاهم التابعون لهم في ضبطه من أخلافنا، جَمَّ الفائدة عظيم العائدة لما فيه مما لا يخفى على متميزه إلى جهة من جهات المعرفة متحيز، ولحرصي على قبول هذا التنبيه، وإن قلَّ ما عندي فيه، بادرتُ إلى جمع المفترق الحاضر، واخراج ما في الحفظ منه وإتعاب الخاطر، رجاء الثواب في تنويه بعالم وتنبيه على فضل فاضل، وتوقيف على غَرَضَ...)[1].

ومن هنا نستطيع القول بأن دافع تأليف الكتاب كان مزدوجاً، حيث لقي طلب ذلك الصديق رغبة وهوى في نفس الحُميدي في نقل مآثر بلده والاشادة بفضل أهله وعلمائه ومعرفة مقدار ما بلغوه في مضمار العلم والثقافة والأدب، يقول بعضهم:

(وقد ألف الحُميدي الجذوة في العراق ولأهل العراق وعنهم يرويها بعد ذلك أهل الأندلس، وليس يبعد أن يكون من آثار رغبة القوم في تأليف هذا الكتاب أن الحُميدي كان يحن إلى وطنه فيكثر ذكر مواطنيه ويطنب في عد مآثرهم فأذكى ذلك الحديث رغبة أصدقائه فألحوا عليه في جمع أحاديثه في كتاب فكانت جذوة المقتبِس)[2].

وإذا كان هذا الترجيح يقرب أن يكون مؤكداً كما يتوقع من حال الحُميدي وصلته بالناس وذوي العلم منهج بخاصة فإن الشيء الذي لا يستطيع الباحث اغفاله أن وجود الحُميدي نفسه بين المشارقة وفي مجالسهم العلمية والأدبية والثقافية بصورة خاصة؛ دليل واضح

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، مقدمة المؤلف، ص 2.

(2) محمد بن تاويت، مقدمة كتاب الجذوة، الطبعة الأولى.

قوي على مكانة الأندلسيين وما توصلوا إليه من التقدم والازدهار في مضمار العلم والثقافة والأدب، وكذلك فإن جهود الحُميدي –لا مجرد وجوده وشهرته– في ميدان بث العلم ونشره بين المشارقة الذين كانوا يتابعون عن كثب وبوساطة الراحلين الاندلسيين خطوات هؤلاء وجهودهم العلمية ونتاجاتهم الثقافية والأدبية ولعلَّ مما يتصل بهذا ويؤيده الظاهرة التي عرفت لدى المشارقة بسفرهم ورحلاتهم إلى الأندلس للتعلم والتعليم والافادة من آفاق التطور الذي كانت البلاد الأندلسية تخطو خطواته بعزم وثبات وهمة عالية واستمرار وكتب التاريخ الأندلسي تزخر بالإشارات الصريحة إلى ذكر أسماء الراحلين المشرقيين إلى الأندلس اساتذة ومعلمين وشيوخاً منذ الفتح الاسلامي وحتى عصر الحُميدي، حيث أن العديد من هؤلاء الراحلين استوطنوا الأندلس ولم يعودوا إلى المشرق وطنهم الأول، تماماً كما فعل الحُميدي نفسه حين استوطن المشرق ولم يعد إلى الأندلس.

مصادر الكتاب:

سبقت الإشارة إلى أن الحُميدي لم تكن لديه المصادر التي تعينه على البحث والتأليف حسب اعترافه هو وانما كانت الذاكرة وقوة الحافظة من أهم الأمور التي اعتمد عليها في ايقاد جذوته وامدادها بأسباب النور والمعرفة غير أن واحداً من المصادر المتأخرة ذكر ما يفيد بأن الحُميدي قد وضع كتابه مختصراً به كتاب المقتبِس لابن حيان[1]، ثم تابعه أحد الباحثين المحدثين فقال عند تعريفه بالحُميدي وآثاره: (...وصل إلينا من تآليفه كتاب جذوة المقتبِس في أخبار علماء الأندلس لخص فيه كتاب المقتبِس لابن حيان...)[2]. بينما نجد باحثاً آخر اعتبر الادعاء السابق: (هذا وهم منهُ –قصد حاجي خليفة– لإن كتاب الحميدي إنما هو أبجدي لعلماء الأندلس قدّم له بموجز في تاريخ الجزيرة)[3].

والذي نراه أن هذا هو المرجح بل المعوّل عليه، ذلك أن المتأمل في الجذوة وفي مصادر الأخبار والأشعار التي يوردها الحُميدي؛ يلاحظ أنه لا ينص على كتاب معين أخذ عنه

(1) حاجي خليفة، كشف الظنون، منشورات مكتبة المثنى، طبعة مصورة بالأوفست ، جـ 1، ص 581.

(2) أحمد أمين، ضحى الاسلام، جـ 3، ص 279.

(3) بالنثيا: أنخل جثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 248.

معلوماته وأخباره، ولكنه مقابل ذلك يسند رواياته إلى أعلام من شيوخه وفي مقدمتهم أبو محمد علي ابن أحمد بن حزم الأندلسي الذي يروي عنه الحُميدي أكثر أخباره فلا تكاد صفحة واحدة تخلو من احالة إليه وتعويل عليه، حتى ذهب بعض الباحثين إلى المبالغة في النظر إلى هذا الأخذ؛ والتهويل في النقل عن ابن حزم فقال: (وكتاب الجذوة معرض لمعرفة ابن حزم لشؤون الأندلس أيضاً، فأكثر ما فيه إنَّما يرويه الحُميدي عن استاذه هذا)[1].

قد لا يكون الأمر بهذه الصورة المكبرة التي تكاد تنحصر الجذوة في ميدان النقل والاستنساخ، وذلك لأكثر من سبب وجيه؛ فالحُميدي لم يفرد ابن حزم بالنقل واعتماد الروايات وإنما نقل عن غيره من شيوخه وقد ذكرهم بأسمائهم وعددهم كثير، وفي مقدمتهم بعد ابن حزم أبو عمر بن عبد البر وقد بلغ عدد المواضع التي نقل فيها عن ابن حزم مائتي موضع في الجذوة في حين يبلغ عدد المواضع التي نقل فيها عن ابن عبد البر مائة موضع تقريباً. ويلاحظ أن الحُميدي ينص صراحة عند نقله عن ابن عبد البر بأنه شيخه ولا يشير إلى هذا عند أخذه عن ابن حزم بل ليذكره باسمه فيقلو: قال أبو محمد علي بن أحمد، أو قال ابن حزم، أو ذكره ابن حزم وهكذا.

أما ما يتبقى من الروايات والأخبار في الكتاب –وهو يشكل القسم الاكبر منها– فإننا نجد الحُميدي يحيل فيه إلى أشخاص آخرين من أساتذته وشيوخه أو غيرهم، وقد لا يذكر السند عندما يريد الايجاز والاختصار أو يجهل القارئ فلا يذكر سند روايته أو أخباره.

وممن يحيل إليهم الخشني صاحب كتاب قضاة قرطبة، وأبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري، هذا إلى جانب عدد من المشارقة الذي ينقل عنهم ومنهم أبو بكر الخطيب والأمير أبو نصر بن ماكولا وآخرين.

من هنا يتبين بوضوح أن النصوص التي أوردها الحُميدي عن ابن حزم لا تشكل سوى جزء من مجموع النصوص التي وردت في الجذوة، ولعلنا بعد هذا نستطيع القول بأن

(1) احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي–عصر سيادة قرطبة، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت ، ص 315.

المصدر الرئيس لكتاب الحُميدي؛ ذاكرته وحفظه، وأن ذاكرته قد اعتمدت أصلاً مصادر عديدة أندلسية ومشرقية ولم تفرد مصدراً واحداً دون غيره بالنقل والاعتماد.

ولقد يبدو للباحث المتأمل أثر الاعتماد الكبير على الذاكرة وبعده عن أهله على نحو ما عرضه بعضهم بقوله: (غير أن بعد المؤلف عن بيئته الأولى وقلة مصادره كانا يحدان من انطلاقه احياناً ويحولان دون تعرضه الوافي لأنباه الأندلسيين، وربما ساقه ذلك إلى اغفالهم، وقد اعتذر عن ذلك في خطبة كتابه)[1].

وعلى هذا فإن قلة المصادر بين يدي مؤلفنا كان لها أثرٌ سلبيٌ على الجذوته يمكن أن تلاحظ بوضوح في التراجم المختصرة الموجزة التي يودُّ كل قارئ متتبع لو أن الحُميدي قد القى المزيد من الضوء على حياة وآثار صاحبها خصوصاً وأنه كان يلمح دائماً إلى فضل أصحاب التراجم في ميادين العلم والأدب.

منهج الحُميدي في الجذوة:

وإذا اعدنا النظر في جذوة المقتبِس بغية الوقوف على الخطوط العامة للمنهج الذي سار عليه الحُميدي في تأليفه وجدنا بأن المؤلف قد سار وفق خطين عامين رئيسين مع مقدمة ضمنها أسباب تأليفه الكتاب وموقفه من المؤلفات السابقة في مضمار مؤلفات الأندلس وأحوالها وأحوال العلماء والأدباء والمؤرخين فيها، كما عرض في المقدمة كذلك إلى أهم المصاعب التي اعترضته بعد عقده العزم على انفاذ فكرة تأليف الجذوة وفي مقدمة ذلك قلة المصادر أو انعدامها مع أنها الأصول الأندلسية التي لابد منها لنقل صورة ما عن العلم والعلماء والأدب والأدباء وألوان الثقافة والمعرفة في الأندلس؛ مما جعله يضطر إلى الاعتماد على ذاكرته وحفظه بالدرجة الأولى.

أما الخطان الرئيسان في منهج أبي عبد الله الحُميدي في جذوته:

فأولهما: يبدو في الفصل الموجز الذي عقده لعرض أحداث التاريخ الأندلسي منذ الفتح وحتى أوائل القرن الخامس للهجرة بإيجاز شددي، عرض فيه للحديث عن عصر الولاة مبتدئاً بالفتح وما تلاه ثم ذكر الولاة الذين تعاقبوا على حكم الأندلس وذكر سماتٍ وملامح

(1) الدقاق، عمر، مصادر التراث العربي في المعاجم والأدب والتراجم، الطبعة الثالثة، بيروت، 1972، ص 285.

موجزة لحياة وسيرة كل منهم وأبرز الأحداث في فترات ولاياتهم وجعل ختام حديثه عن هذه الفترة ايجاز القول في المشهورين من التابعين المجاهدين الذين دخلوا الأندلس فقال: (...وسنذكر إن شاء الله في الأبواب، ممن دخل الأندلس للجهاد من التابعين جماعة ومنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة...)[1] ثم يورد أسماء عدد من هؤلاء وهم: حنش بن عبد الله الصنعاني، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وزيد بن قاصد، وموسى بن نصير.

ثم يختم الحُميدي حديثه هذا بتعريف مختصر جداً بجزيرة الأندلس وبهذا يكون القدر الذي استغرقه هذا الحديث قريباً من ثماني صفحات من كتابه، وهو قدر يسير –من حيث الكم– إذا ما نظر إليه من خلال الأحداث والأشخاص الذين تناولهم بالتعريف والترجمة.

ويعرض الحُميدي بعد ذلك ضمن الخط العام الأول في منهجه إلى تلخيص القول في فترة الامارة فيمهد لها بكلام موجز عن نهاية فترة الولاة ويبدأ حديثه بالتعريف بأول أمراء بني أميّة ومؤسس دولتهم في الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان، ويورد طرفاً من سيرته وجهاده في اقامة الامارة بعد هربه من المشرق واختفائه في المغرب الاسلامي قبل عبوره إلى الأندلس وتناول بعد هذا الأمراء الأمويين من ذرية عبد الرحمن الداخل حسب تسلسلهم الزمني فتحدث عن هشام ثم الحكم فعبد الرحمن بن الحكم فمحمد بن عبد الرحمن فالمنذر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد بن بعده؛ فعبد الرحمن الناصر فالحكم المستنصر فهشام المؤيد. ثم يخص بالتعريف الموجز أحوال حكام فترة الحجابة وهم: المنصور بن أبي عامر وولداه عبد الرحمن وعبد الملك.

ويبدو واضحاً أن الحُميدي التزم بمنهج الاختصار الشديد في كل ترجمة، غير أنه لم يغفل التعرض لذكر جملة من النصوص الأدبية في الشعر والنثر لعدد من هؤلاء الأمراء الذين كان فيهم الشعراء والخطباء مثل عبد الرحمن الداخل وسليمان المستعين، وقد جاء هذا كله فيما يقرب من ثلاثين صفحة من الكتاب.

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، ص 6.

وبهذا يكون أبو عبد الله قد جانب الاسترسال والاسهاب في عرضه التاريخي والسياسي لفترات الأندلس وحتى عصره، ولا يجد الباحث ذكراً لعصر الطوائف سوى ما أورده من لمحات واشارات تتعلق بدولة بني عباد في اشبيلية.

وقد يستطيع الباحث التماس العذر للحُميدي بإغفاله الحديث عن فترة مهمة من فترات تاريخ الأندلس العلمي والثقافي والسياسي إلى جانب كونها الفترة التي ولد فيها الحُميدي وترعرع وشهد احداثاً كثيرة من أوليات قيام تلك الدول في فترة تقرب من عشرين عاماً الأولى من حياته قبل أن يسافر إلى المشرق.

ويبدو هذا التسويغ في اعتذار الحُميدي نفسه عن قلة المصادر والبعد عن الوطن وبخاصة في فترة الازدهار والتقدم العلمي والثقافي لتلك الدول. وربما استطاع الباحث أن يعتذر للحُميدي بأنه لم يرد أن ينقل الجانب السلبي من حياة مجتمع الطوائف حكاماً ومحكومين لما في ذلك من الألم والحسرة اللذين تذكره بهما مواقف أمراء الطوائف فيما بينهم أو مع الأعداء وهي مواقف محزنة مؤلمة في كثير من جوانبها وسماتها ولعلَّ الحُميدي –انطلاقاً من هذا– لم يرد أن يشوه الصورة المشرقة التي كان –على ما يبدو– يعرضها دائماً عن قومه وما توصلوا إليه وما قطعوه من أشواط في ميادين العلم والأدب وجوانب الحضارة المزدهرة التي كانت مناراً لمن حولهم ومركز اشعاع يغري كثيراً من غير المسلمين بالسفر إلى الأندلس والعيش فيها ولو لفترة محدودة بقصد التعلم والأخذ بأسباب الثقافة والتحضر.

ولكن يبقى السؤال الذي لابد منه وهو: لمَ أفرد الحُميدي دولة بن عباد بالإشارة وخصها بالذكر دون سائر دول الطوائف وقد كان يسعه السكوت بصورة تامة عن تلك الفترة؟

ربما كان سبب ذلك أهمية هذه الدولة في مضمار العلم والأدب ووجود نجوم لامعة في سماء تلك الدولة سواء من الأمراء كابن عباد نفسه أو من الوزراء كالوزير أبي بكر وغيرهم كانوا جميعاً من أعلام الأدب والثقافة وكانت لهم أداور وآثار لا تنكر.

وقد يرد في ذهن المتأمل في موقف الحُميدي أنه لم يكن لديه من المعلومات التي احتفظت بها ذاكرته عن الدول الأخرى ما يستطيع به أن يعرف بأحوالها لو بإيجاز شديد على نحو ما فعل بالنسبة للفترات السابقة.

ومهما يكن فإن الثابت المعروف أن الحُميدي قد غادر الأندلس سنة (448هـ) ولم يعد إليها بعد ذلك أبداً فكان ذلك تسويغاً يمكن أن يضاف إلى ما يلزم له من اعذار.

على أن الحُميدي مع ذلك لم يهمل الأمر على الاطلاق دائماً اكتفى بإشارة عابرة أوردها في ختام حديثه عن فترة الامارة حين قال: (...وهناك ملوك أُخر قد تقاسموا البلاد وغلب كل سلطان منهم على جانب منها عند حدوث الفتن لم نتعرض لذكرهم، إذ لم يدع واحد منهم خلافه ولا انتسب بعد اليها، وحقيقة أخبارهم أيضاً قد بُعدت عنا ونسأل الله أن يتدارك الكل بما فيه الصلاحُ الشامل، ويجمع كلمتهم على ما يرضيه برحمته...)[1].

وأما الخط الثاني الهام في منهج الحُميدي في جذوته وهو الخط الذي يبدو أنه المقصود بالتأليف أصلاً –كما يفهم من كلام الحُميدي في مقدمته– وهو التأمل في الكتاب نفسه إذ يقول بعد هذا الايجاز عن التاريخ السياسي (...وقد آن أن نرجع إلى ذكر المقصود من الأسماء على ترتيب الحروف، ونبدأ بذكر المحمدين والأحمدين منهم أولاً...)[2].

ويمضي بعد هذا في التعريف بالأعلام من أهل بلده مبتدئاً بترجمة من اسمه محمد وأول من يترجم لهم من المحمدين (محمد بن محمد الصّدَفي محدَّث أندلسي، سمع أبا خالد بن علي بن مالك القطيني مات بالأندلس...)[3] ثم يختم هذه المجموعة بترجمة مختصرة أيضاً وهي ترجمة: (محمد بن يعيش أبو عبد الله؛ يروي عن ابن الطحان، أخبرنا عنه أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان العمري النحوي)[4].

ويبلغ عدد هذه التراجم مائة واحدى وسبعين ترجمة (1–17) يبدأ بعد هذا بالترجمة لمن اسمه أحمد سائراً على النهج نفسه مبتدئاً بترجمة أحمد بن محمد بن عبد ربه. وهي ترجمة طويلة إلى حدٍّ ما وذلك بسبب ما أورده في ثناياها من نصوص شعرية لابن عبد ربه في أغراض مختلفة ثم يختم هذه المجموعة بترجمة موجزة لعلم من أعلام الأندلس وهو: (أحمد بن يحيى بن زكريا بن الشَّامة؛ بالشين المعجمة، يروي عن أبيه، روى عنه أبو القاسم

(1) الحُميدي، جذوة المقتبِس، ص 36.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص 38.

(4) الحُميدي، جذوة المقتبِس، ص 100.

خلف بن القاسم بن سهل وقد ذكرنا له خبراً في باب الخاء في ذكر خلف بن قاسم)[1].
وتستغرق هذه التراجم التسلسل من (172–257). ويأتي الحُميدي بعد ذلك إلى الترجمة لمن اسمه ابراهيم في مجموعة أخرى تبدأ من (258–294) ويكون مجموعها ستاً وثلاثين ترجمة.

ويأتي الحُميدي بعد ذلك إلى من اسمه اسماعيل فيما يقرب من عشر تراجم (295–304) ومن اسمه اسحق (305–311) ومن اسمه ادريس (312–313).

ويتناول بالترجمة بعد هذه المجموعات من اسمه أيوب في ثلاث تراجم (314–316) ومن اسمه أبان (317–318) ومن اسمه أسد (319–320) ومن اسمه أسلم (321–322) ومن اسمع أصبغ (323–325).

ثم يجمع بعد هذا جملة من التراجم التي تحمل أسماء أخرى تحت عنوان (أفراد الأسماء) مثل أبيض وأسامة وأميّة والأسعد ويستعرض ذلك في خمس تراجم (326–330).

يأتي الحُميدي في مسيرته العلمية الأدبية التاريخية إلى من اسمه مبدوئاً بحرف الباء، غير أنه لا يبدأ بحرف الهمزة حسب الترتيب الهجائي –كما يتوقع–، وانما يبدأ بمن اسمه (بقي) في ترجمتين (331–332) وبكر في ترجمتين أيضاً (333–335) ويتبع هذا بما يسميه أفراد الأسماء ممن يبدأ اسمه بالباء أيضاً مثل: بلج، بشر، بحيج، البراء، بشار وذلك في خمس تراجم (336–341).

ويمضي الحُميدي على هذا النهج في عرض التراجم فيتناول الأسماء المبدوءة بالتاء والثاء والجيم والحاء...حتى يصل إلى الياء وهي خاتمة الأحرف حسب الترتيب الهجائي؛ ولا ينسى أن يختم تراجم كل حرف بأفراد الأسماء على نحو ما ذكرنا نماذج منه في المذكور آنفاً ويلاحظ خلال ذلك أن الحُميدي لا يلتزم بترتيب الأسماء على حروف الهجاء ترتيباً مطرداً في أيٍّ من الخطوتين اللتين اتبعهما في كل حرف من حروف الهجاء.

ويختم الحُميدي كتابه بما يطلق عليه (الجزء العاشر من تجزئة الأصل)، وهو آخر جزء من الكتاب وقد جعله في صورة تختلف عن نهج التراجم السابقة إذ يسير فيه على نهج الأبواب وقد قسّمها إلى خمسة وهي:

(1) المصدر نفسه، ص 149.

1. باب من ذكر بالكنية (917–959) ومنهم أبو محمد الحجاري، أبو اسحق بن حمام، أبو الأصبغ بن الأصبغ بن عبد العزيز.
2. باب من نسب إلى أحد آبائه ولم يعلم اسمه (960–976) ومنهم: أبو آمنة، ابن أبيض، ابن التياني، ابن جاخ البطليوسي، ابن سيد: امام في اللغة العربية، ابن أبي سعيد القاضي: أندلسي جليل.
3. باب من ذكر بالنسبة (977–982) وهم: البزلياني، الجرفي، الخندفي، الزبيري، اليحصبي، اليربوعي.
4. باب من ذكر بالصفة (983–984) وهم: غلام الفصيح الأندلسي الناجم: شاعر أديب، ذكره أبو عامر ابن شهيد وذكر له أخباراً مع صاعد.
5. باب النساء (985–987) وهنّ: صفية بنت عبد الله، ومريم بنت أبي يعقوب، والغسانية: شاعرة تمدح الملوك.

وحين يأتي الحُميدي على نهاية هذه الأبواب وما احتوته من التراجم[1] المنوعة حسب اختصاص أصحابها يختم كتابه مباشرة بعدها بقوله:

(هذا الذي حَضَرنا من المعنى المقصود قد جرمانة بعون الله عز وجل لمقتبسيه أيام كوننا بالعراق والوعد باق علينا إن أُمهلنا إلى سلوك تلك الآفاق، فلنعد الآن إلى ما بدأنا به بعد أن نستغفر الله مما لا يوافق رضاه ونسأله العون على طاعته وتقواه...)[2].

وبهذا يصل عدد التراجم إلى ألف ترجمة تقريباً هذا سوى ما تطرق إليه من أحاديث التاريخ والسياسة وسير الولاة والأمراء منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس للهجرة.

ويبدو بصورة واضحة لمن يتأمل في هذه التراجم أنها تتفاوت في مقاديرها من حيث الايجاز الشديد الذي لا يكاد يتجاوز السطور القليلة وهذا يشكل القسم الأكبر من هذه التراجم.

(1) الحُميدي، الجذوة، ص 413–414.

(2) نفسه، ص 413–414.

وبين التعريف الذي يجنح إلى قليل من التفصيل مع ذكر نماذج من الشعر لصاحب الترجمة مثل ترجمة أبي محمد بن حزم وترجمة ابن عبد ربه وترجمة صاعد بن الحسن وترجمة أبي عامر بن شهيد...وغيرها من التراجم المماثلة.

ويبدو كذلك للمتأمل في منهج الحُميدي في كتابه الجذوة أنه قد حاول أن يجعل منهجه منوّعاً لا يسير على وتيرة واحدة وإن كان قد امتاز بطابع عام هو تناول التراجم على وفق الترتيب المعجمي للحروف وقد أشار إلى هذا في تقديمه للكتاب بقوله: (ثم نذكرُ سائر من قصدنا ذكرهُ مما في الحفظ أو في حاضِر الكُتب، مرتباً على حروف المعجم ونعتمد ذلك أيضاً في كل حرف...)[1].

وقد لاحظنا هذا التنوع مع التزام الخط العام في الترتيب أحدٌ من الباحثين فقال: (وألفه اولاً على ترتيب السنين بناءً على رغبة بعض معارفه ببغداد، ثم رتبه على حروف المعجم بناء على نصيحة ابن ماكولا...)[2].

وإذا كان هذا النص يفيد بتحوّل الحُميدي من ترتيب إلى آخر؛ فإن الصحيح المؤكد أنه قد جمع الترتيبين. فترتيب السنين مأخوذ به في القسم الأول من الكتاب وهو الذي عرض فيه التاريخ السياسي للأندلس منذ الفتح حتى عصره. وأما ترتيب المعجم فقد أخذ به فيما تلا ذلك من التراجم على نحو ما أوردنا بعض تفاصيله في الصفحات السابقة، وإن لم يكن التزامه به على وجه الدقة والاستقصاء غير أنه يمكن أن يقال بأن هذا كان الصفة الغالبة والطابع على الترتيب، مما أسهم في تسهيل الرجوع إلى هذه التراجم والافادة منها بالنسبة للباحثين في العصور والأماكن المختلفة.

بين الجذوة وتاريخ بغداد:

ولعلَّ من يُكمل الصورة الموجزة العامة لمهج الحُميدي في جذوته أنه تعرض لما تردد في بعض المراجع من وجهات نظر حول هذا المنهج وصلته بمناهج أخرى في كتب سابقة؛ فقد حاول بعض الباحثين الربط بين منهج أبي عبد الله في الجذوة وبين منهج

(1) الحُميدي، الجذوة، ص 3 مقدمة المؤلف.

(2) بروكلمن، كارل، تاريخ الأدب العربي، جـ 6، تحقيق: رمضان عبد التواب والسيد يعقوب بكر، طبعة دار المعارف، 1977، ص 6، ص 104.

كتاب سبقه من مؤلفات المشارقة؛ فقال: (...والمنهج الذي اتبعه الحُميدي شديد الشبه بمنهج الخطيب البغدادي، وأغلب الظن أنه حذا حذوه، ونسجه على منواله؛ فهو يبدأ كتابه بفصل قصره على الترجمة للولاة الذين حكموا الأندلس منذ الفتح وذلك بحسب تسلسلهم الزمني؛ فابتدأ بعبد الرحمن الداخل واتبع سائر أمراء بني أميّة وخلفائهم ثم انتقل في سائر الكتب إلى ذكر التراجم جاعلاً إيّاها على حروف المعجم وآثر الحُميدي اخيراً أن يبدأ بأسماء المحمدين فالأحمدين ثم التزم النسق الالفبائي في ترتيب سائر تراجمه...)[1].

والحق أن هناك شبهاً بين منهج الخطيب البغدادي في تاريخه ومنهج الحُميدي في جذوته وبخاصة فيما يتعلق بترتيب تراجم الكتاب حيث يبدأ الخطيب تراجمه في المجلد الثاني والثالث إذْ أفردهما لمن اسمه محمد. أما الرابع والخامس فقد أفردهما لمن اسمه أحمد. بينما أفرد المجلد السادس لتراجم من سمّوا بإبراهيم ثم اسماعيل[2]...وهكذا يمضي الخطيب في مجلدات كتابه مستقصياً أخبار الذين يترجم لهم مع ملاحظة ترتيبهم على المعجم واتبع ترتيب الحروف ضمن كل حرف بدقة واطراد.

ونستطيع بعد هذا ملاحظة أوجه الشبه بين المنهجين التي تبدو واضحة في التراجم إلى جانب ملاحظة أوجه الاختلاف والتباين بين المنهجين وذلك على وفق الآتي بما تسمح به طبيعة البحث من اعتماد الايجاز غير المخل:

فالخطيب يبدأ حديثه في المجلد الأول عن أرض السواد وأقوال العلماء والتعريف باسم العراق؛ وفتحه من قبل المسلمين وذكر الأحاديث الواردة في ثلب بغداد والطعن في سيرة أهلها، ثم يبين المؤلف فساد تلك الأحاديث وعدم ثبوت صحتها، ويذكر مقابل ذلك مناقب هذه العاصمة الاسلامية الكبرى منذ البدء ببنائها في زمن المنصور، وذكر أسماء أرباضها ونواحيها والحديث عن قصورها ومتنزهاتها ومحالّها العامة، ويتعرض بعد ذلك إلى قصور الخلفاء وأسماء المساجد والأنهار والمواضع والجسور فيها.

(1) الدقاق، عُمر، مصادر التراث العربي، ص 288.

(2) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الناشر دار الكتاب العربي، تحقيق وطبع: أوفسيت كونرو غرافير، بيروت– لبنان ، جـ 3–5 و جـ 6.

ويضيف البغدادي إلى التعريف ببغداد وذكر مناقبها ذكر عدد من الوافدين إليها من الصحابة رضي الله عنهم. فيما توصل إليه من الأخبار والآثار بشأن ذلك[1].

ونجد الحُميدي مقابل هذا الجانب من المنهج عند الخطيب؛ يفتتح كتابه بالحديث عن تاريخ الولاة والأمراء بإيجاز شديد دون التعرض لأرض شبه الجزيرة الأندلسية أو بلدانها إلا فيما لا يتجاوز كلمات قليلة ولمحات عابرة.

ونلاحظ كذلك من أوجه الاختلاف بين المنهجين: الأبواب التي ختم بها الحُميدي كتابه وهي أبواب مختصرة لم يسر في عرض تراجمها على ترتيب معين وعلى هذا فيمكن القول بأن الحُميدي قد أفاد من منهج الخطيب في جانب من منهجه الذي اتبعه في الجذوة خاصة وأنه قد أدرك الخطيب وتعرّف عليه وعقد صلة معه –فيما يبدو من الاشارات– وذلك لمدة تقرب من خمسة عشر عاماً حتى وفاة الخطيب سنة (463هـ).

ولكن الذي يصعب قبوله –فيما أرى– القول بأن كتاب الجذوة في منهجه صورة من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي لما ينطوي عليه هذا القول من المبالغة والافراط في التقدير واعتماد الظواهر المشتركة بين الكتابين، التي يمكن أن يسلك أكثرها في الظواهر العامة التي يعرفها كل مؤلف في تلك العصور فضلاً عن أن يكون من العلماء والأدباء والرواة والمؤرخين الذين جمعوا صفة الأدب بكل ما لها من أبعاد ودلالات علمية وأدبية.

قيمة الجذوة وأهميتها:

على الرغم من أن كتاب الجذوة يقع في مجلد واحد فيما يزيد على أربعمائة صفحة فإنه كان وما يزال ذا أهمية بالغة وقيمة كبيرة في أوساط الدراسات الأدبية بعامة والأندلسية بخاصة.

ذلك أن المتأمل في محتوياته بعد مطالعة مقدمته التي علل فيها تأليف الكتاب؛ يدرك أن الرجل كان يهدف إلى تحقيق فائدة لبلده الأندلس ولأهل المشرف كذلك وفي ذلك يقول بعض الباحثين: (كان من أهم أهدافه أن يحشد لأهل العراق العدد الكثير من علماء الأندلس لتتضح الدلالة على فضل بلده وساكنيها من حملة العلم وأن يستوعب من

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المجلد الاول.

أخبارهم ومبالغهم من العلم ما يقنع القارئين بمفاخرهم على أن الباحث يستطيع الوقوف على شيء من تفاصيل هذه الفوائد سواء بالنسبة للأندلس أو المشرق)[1].

فعلى صعيد الأندلس يعدُّ الحُميدي من الأعلام الذين عرّفوا ثقافة الأندلس وعلومها وأخبار علمائها إلى أهل المشرق وقضى بذلك حقاً لهم في زمنه وكانت اقامته الطويلة في بغداد يخالط علماءها ويحضر مجالس العلم فيها ويسمع الكثير عن علماء المشرق ومؤلفاتهم ويشهد مناظراتهم العلمية والثقافية والأدبية؛ كان ذلك كله قد أعانه بل دفعه إلى تأليف كتابه الجذوة.

وكان كتاب الجذوة هذا من المصادر الهامة في تاريخ الأندلس وأدبها وأدبائها خاصة وان كتب التاريخ التي أُلفت قبله لم تصل كاملة أو لم يصل منها شيءٌ أصلاً؛ من ذلك كتاب المتين وكتاب المقتبس لابن حيان حيث لا يوجد من الأول سوى ما نقله صاحب الصلة وصاحب الذخيرة من النصوص ضمن تراجمهما وأخبرهما، كما لا نكاد نجد من الثاني سوى أجزاء متفرقة من الأصل الكبير الذي تجاوز عشرة مجلدات.

واستناداً إلى التراجم التي احتوتها الجذوة فإنها تعدُّ معجماً ضخماً حوى أسماء العلماء والرواة والأدباء والفقهاء في الأندلس، لا نعرف كتاب مطبوعاً بلغ هذه المنزلة من كتب الأدب والثقافة الأندلسية حتى عصر الحُميدي.

ومن مظاهر النفع الكبير لكتاب الجذوة بالنسبة للأندلس؛ أنه صار أصلاً هاماً وقاعدة ركيزة لعديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية التي ألفت بعده مثل كتاب الذخيرة لابن بسام الشنتريني، الذي نجد أنه احالات عديدة إلى كتاب الحُميدي وخاصة في المواطن التي يتعرض فيها لذكر الأخبار الأدبية المختلفة.

وكتابَي الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ومطمح الأنفس، إلى جانب الكتب الأخرى التي جاءت بعد الذخيرة وكتب الفتح؛ مثل كتاب الصلة لابن بشكوال، غير أن أوسع مدى جرى فيه اعتماد الجذوة في تأليف تالٍ لها، تمثل في كتاب بغية الملتمس للضبي؛ ذلك أن مؤلفه قد أخذ عن الجذوة واعتمد أخبارها وتراجمها بالنص أو بالاقتباس أو أخذ أصول الأخبار والمعاني حتى كاد كتابه أن تكون نسخة مختصرة من الجذوة، وليس أدلّ على

(1) الجذوة، مقدمة الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي، الطبعة الأولى، ص 7.

هذا من قول مؤلفه نفسه حين عرّف بالحُميدي وترجم له إذ قال: (...ومنها كتاب جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، وعليه اعتمدت ومنه نقلتُ...)[1].

ويكفي المتأمل في أوجه الشبه بين الكتابين سواء من حيث المادة والمعلومات التي احتواها كل منهما أو من حيث منهجاهما أن يلاحظ أثر هذه الاعتماد ونتائج النقل حتى في العنوان الذي حاول الضبي فيه أن يجعله جزءاً أو صورة من عنوان كتاب الحُميدي فسمّاهُ (بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس) ليقابل به عنوان (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس).

وهكذا يمكن الوقوف على آثار كتاب الجذوة في عديد من المؤلفات الأندلسية المتأخرة التي يصعب تتبع أوجه الاعتماد فيها على الجذوة مثل كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد وآخرين، ونجده ينقل عن الحُميدي في جذوته اخباراً وآثاراً كثيرة في مواطن عديدة في الجزأين الأول والثاني.

وكتاب الحلة السيراء لابن الأَبار القضاعي، الذي ينقل الآخر نصوصاً عن الجذوة في مواطن عديدة لا تكاد تحصى. ومثل هذا يمكن أن يقال عن كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة لمؤرخ الأندلس وأديبها في القرن الثامن للهجرة. وكتاب نفح الطيب للمقري وغيرها.

أما آثار الكتاب على الصعيد المشرقي فإننا نرى أن كتاب الجذوة قد أطلع المشارقة على مكانة الأندلسيين وجهودهم في ميادين العلم والثقافة بعد أن كانوا ينتقصونهم ويقللون من أهمية جهودهم ومآثرهم ولا يرونهم إلا تبعاً لهم وعالة عليهم في مواهبهم وآثارهم العلمية والأدبية والثقافية بصورة عامة وليس ببعيد عنا موقف الصاحب ن عباد من كتاب العقد الفريد حين أطلع وأطلق قولته المشهورة (بضاعتنا ردت الينا)[2].

ومن هنا فقد كانت الجذوة من الأسس التي أسهمت في اثراء معلومات المشارقة عن الأندلسيين أخذوا عنها واعتمدوا عليها ورجعوا إلى محتوياتها في عديد من مؤلفاتهم

(1) الضبي، بغية الملتمس، المقدمة، ص 5.

(2) ينظر ياقوت، معجم الأدباء، جـ 2، ص 67، وينظر كذلك بحث العقد الفريد بين المشرق والأندلس، مجلة آداب الرافدين، العدد السابع، شوال 1396هـ، ص 329-364.

وتراجمهم حين كانوا يؤلفون عن الأندلس أو يترجمون لأعلامه وأمرائه وأدبائه ومثقفيه ولم يؤثر عن أحد منهم أن طعن في مكانتها أو حاول التقليل من اهمية هذه المكانة وآثارها في الدراسات الأدبية والتاريخية.

وإذا مضينا مع المؤلفات في العلوم والثقافة والأدب وبحوث الدارسين المحدثين فإننا نجد الصورة نفسها أو ما يقرب منها بشأن أهمية الجذوة ومكانتها في مصادر الأدب وتراجم الأدباء والدراسات الأدبية والتاريخية ونصوص الشعر وكان من ذلك الملاحظات التي أبداها بعض الباحثين حول الجذوة والترجمة لمؤلفها مع الاشادة بمكانته وثقافته وآثاره.

ومن هؤلاء بالنثيا في كتابه المعروف في الدراسات الأندلسية الحديثة (تاريخ الفكر الأندلسي). واحسان عباس في تاريخ الأدب العربي في عصر سيادة قرطبة، وعمر الدقاق في كتابه مصادر التراث العربي. هذا فضلاً عن اعتماداه في احالات عديدة في مؤلفاتهم وغيرها من كتب الدراسات الأندلسية الأدبية والتاريخية.

حظ الأدب في جذوة المقتبس:

وإذا أردنا اعادة النظر في قيمة الكتاب من الوجهة العلمية والأدبية سواء من حيث ما ضمه بين دفتيه من المعلومات والمادة الأدبية المتميزة في النصوص الكثيرة أو من حيث الأسلوب الذي كتبت به التراجم...نجد أن هذا الكتاب النفيس ذو آثار هامة ونتائج بارزة في ميدان العلم والثقافة والأدب.

فبالإضافة إلى الايجاز الذي حرص عليه الحُميدي في تقديمه لأحوال البلاد والأندلس في العهود المختلفة في ظل الولاة والأمراء وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية؛ فإنه مع ذلك كله قد عرض لترجمة ما يقرب من ألف علم من أعلام الأندلس في ميادين ثقافية وعلمية شتى كالفقه والتفسير والحديث والتاريخ والأدب بفنونه وبخاصة الشعر، وجلَّ هؤلاء الذين ترجم لهم الحُميدي لم تحتفظ بهم المصادر المعاصرة على نحو ما احتفظ به الحُميدي من أحوالهم وأخبارهم وآثارهم.

فكانت الجذوة وعاءً أميناً حفظ لنا سير أولئك مع نبذ عن حياة كل منهم وذلك على الرغم من الاختلاف الواضح بين علومهم ومعارفهم وتكاد تراجم الفقهاء والقضاة والمحدثين

تستغرق ثلثي الجزء الذي ضمته التراجم، وما بقي منها كان لأدباء أورد الحُميدي لأكثرهم نصوصاً شعرية في أغراض شتى.

وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الحُميدي وأورد أمثلة من نظمهم مائتين وسبعة وثمانين شاعراً (287) وأديباً كان مجموع الأبيات التي ذكرها لهم في جذوته ألفاً وخمسمائة بيت موزعة على الأغراض المعروفة في شعرنا العربي وفق الآتي (ابتدأ من أكبر قدر من الأبيات وانتهاءً بأقله):

الغرض	العدد رقماً	العدد كتابةً
الوصف	314	ثلاثمائة وأربعة عشر بيتاً
الغزل	300	ثلاثمائة بيت
المديح	212	مائتان واثنا عشر بيتاً
الشكوى	124	مائة وأربعة وعشرون بيتاً
المراجعات	73	ثلاثة وسبعون بيتاً
الفخر	69	تسعة وستون بيتاً
الهجاء	62	اثنان وستون بيتاً
الخمر والمجون	54	أربعة وخمسون بيتاً
الشوق والحنين	47	سبعة وأربعون بيتاً
الزهد	22	أثنان وعشرون بيتاً
النسيب	22	أثنان وعشرون بيتاً
العتاب	11	أحد عشر بيتاً
الرثاء	5	خمسة أبيات

ومن التأمل في الجدول السابق يتبين لنا أن موضوعات الوصف والغزل والمديح والشكوى تأتي في مقدمة الأغراض التي عُني الحُميدي بعرض نماذج لها ويقف في مقدمتها الوصف ثم الأغراض الأخرى حسب الترتيب المدوّن المعتمد على عدد أبيات كل غرض وليس من شك في أن كثرة أبيات الوصف ذات دلالة واضحة على نهج الأندلسيين في التأثر بالطبيعة الخلابة الغنية بالموضوعات، وهي دلالة –في الوقت نفسه– على صلة الأندلسيين

ببيئتهم وحرصهم على الاشادة بخصائصها وسماتها التي تكاد تكون متفردة في العديد من الخصائص والسمات التي جعلتها تتفوق على البيئة المشرقية والطبيعة المشرقية بما انطوت عليه من مشاهد ولوحات زاهية جميلة بلغت الغاية في حسن المظهر وجمال المخبر هذا فضلاً عما تضمنته أشعار الوصف من الدلالة على أحوال الأدباء والاشادة بأذواقهم ومواهبهم وربما استطعنا أن نضيف إلى هذا دلالة شعر الوصف وأهميته نوعاً وكماً على صلة الأندلسي بأرضه ووطنه من جهة، وآثر تلك البيئة الجميلة الزاهية الفريدة في مشاعره وحواسه، وتربية ذوقه وتنمية قابلياته ومواهبة الأدبية والشعرية من جهة أخرى.

ولا ننسى في هذا المقام مكانة الأغراض الأخرى التي تلت الوصف ودلالاتها على اهتمام الشاعر الأندلسي بموضوعات الشعر وخاصة تلك التي مرت ببلدهم عبر العصور المتوالية وخاصة القرن الخامس للهجرة.

ويمكننا أن نخص بالذكر شعر الشكوى الذي جاء بعد الوصف والغزل والمديح وكان وما يزال تعبيراً صادقاً عن كثرة رحلات الأندلسيين بين المدن الأندلسية أو بين الأندلس والمشرق مما يعكس حالة من الشوق والحنين إلى الأهل والوطن والتحسر على مرابع الصبا ومراتع الشباب ومجالس العلم والأدب واللهو والمتعة وسط طبيعة خلابة وبيئة معتدلة الهواء كثيرة الخضرة والماء، وقد أدى هذا أخيراً إلى أن يكثر شعر الغربة والحنين في أدب الأندلس حتى يكون فناً أدبياً من الفنون المهمة التي شغلت حيزاً كبيراً ومساحة واسعة من الشعر الأندلسي، وكان ما ورد في كتاب الجذوة ديلاً على هذا الفن وأهميته ومكانته في أدب الأندلس وفي نفوس أدبائه.

وتدل الصور الشعرية التي اختارها الحُميدي بعد هذا كله على ما كان يمتاز به الأندلسيون من ايثار السهولة والوضوح والبُعد عن التعمق والأغراب والغموض في التعبير إلى جانب ما تدل عليه أبيات الوصف والفخر والغزل والمديح من سمات بالراحة والاطمئنان التي عاشها الأندلسيون في القرون الأولى من حياتهم وقبل أن تنقسم دولتهم إلى دويلات وقبل أن يصبح أميرهم أو خليفتهم أمراء وولاة.

سمات فنية وأدبية في اسلوب الجذوة:

ولعلّ مما يساعد على اكمال الصورة الأدبية والفنية لكتاب الجذوة أن ننظر في أهم السمات الأسلوبية التي امتازت بها في ملاحظات موجزة سريعة تسهم في ابراز اهمية هذا السفر الثمين ومكانته في مؤلفات الأدب العربي بعامة والأدب الأندلسي بخاصة.

وأول ما نقدمه بين يدي هذه السمات أن تراجم الحُميدي تفاوتت بين الايجاز الشديد أو التفصيل الوافي الذي لا يصل حدّ الاطناب والاسترسال. فإذا رأينا الحُميدي يوجز ذلك الايجاز الشديد فإنه يعطي من خلاله صورة عن المترجم له من حيث تخصصه ان كان عالماً أو أديباً أو شاعراً أو كاتباً أو محدثاً ثم يختم ترجمته المختصرة بذكر من أخذ عنه أو روى أخباره أو ذكره بالاسم فقط مع الاشارة إلى سنة وفاته إن وجدت. أما إذا رأينا يطيل بعض الشيء في ترجمته لبضع صفحات فإنه يبعد بذلك عن أن يكون كلامه اطناباً قائماً على الحشو والتكرار، وإنما هو عرض وافٍ لأحوال المترجم له من الناحية الثقافية والعلمية والأدبية. مع ذكر صور من نتاجه وآثاره.

ثم نأتي بعد هذا إلى السمة التي تطالع المتأمل في اسلوبه وتعابيره في تلك التراجم وهي سمة الوضوح والسهولة والبعد عن الصنعة البلاغية والتكلف اللفظي التي يفترض أن يكون قد تأثر بها في عصره وخاصة في المشرق حيث المدارس والاتجاهات الأدبية في فن الكتابة أو ما يسمى بالنثر المرسل الذي عُرف له في المشرق شيوخ متخصصون رسموا لمن بعدهم الخطوط العريضة للنثر الفني القائم على الصنعة والتكلف.

وهكذا يلاحظ المتأمل في أسلوب الحُميدي في جذوته: (اختفاء ظاهرة الغلو التي نلمسها في الغالب لدى مؤلفي كتاب التراجم من اشادة بالغة ببعض الشيوخ ونسبة الفضل الفائق اليهم، ولعلَّ كونه محدثاً جعله أقرب إلى الواقع والموضوعية...)[1].

والملاحظة الأخيرة التي علل بها الباحث بعد الحُميدي عن الصنعة والغلو لما مكانتها من الصحة والصواب، ذلك أنه مما لا شك فيه أن الحُميدي كان مُحَدِثاً حافظاً راوية للحديث معنياً بعلومه وفنونه مطلعاً على الأمور العامة المتعلقة به، ولهذا وجدنا باحثين آخرين يؤكدون هذه السمة ويربطونها بثقافة الحُميدي واتجاهه نحو الحديث الشريف وعلومه من ذلك قول باحث آخر أن للحُميدي (قدرة فائقة في التجريح والتعديل ومعرفة الأنساب وكل ذلك يدلُّ على ذاكرة عجيبة وحيوية عقلية فذة)[2].

ومما يدعم هذا ويؤكده أن المؤلفات التي جاءت بعد الحُميدي وجذوته كالذخيرة والمطمح والقلائد؛ لم يستطع مؤلفوها التخلص من ظاهرة الغلو في تعابيرهم حتى جاءت تراجمهم

(1) الدقاق، عمر، مصادر التراث العربي، ص 288.

(2) احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص 315.

منطوية على قدر لا ينكر من المبالغة والاطراء واطلاق النعوت والصفات والألقاب الطنانة على المترجم له دون تحرّج حتى كان من نتائج ذلك تكرار العديد من الألفاظ والمعاني والتعابير في تراجمهم.

ويبدو هذا واضحاً لكل من يتأمل كتاب الذخيرة أو يقرأ ترجمة من ترجماتها أو سطوراً قليلة منها وكذلك مؤلفات الفتح بن خاقان على الرغم من قلة صفحاتها فكتاب المطمح كتاب صغير واوسع منه قليلاً كتاب قلائد العقيان في حين اننا وجدنا كتاب الذخيرة موسوعة ضخمة في الأدب والتاريخ الأندلسيين فكان باستطاعة الباحث المتأمل التماس العذر لابن بسام والتوقف والحذر عند الفتح في عبارات الغلو والافراط في الوصف والتعريف.

على أن سمة الايجاز والبعد عن الغلو في كتاب الجذوة لا تعني خلوّ أسلوبها من سمة البيان العربي، فإن الناظر في أساليب الترجمات يبدو له بوضوح اعتماد اسلوب الكاتب على صور البيان والبديع التي تسير مع الطبع وتلائم الذوق ولا تصل إلى أن تكون صنعة أو تكلفاً.

ويمكن القول بأن ما ذهب إليه المستشرق بالنثيا ضمن تقويمه لكتاب الجذوة واصداره حكماً سريعاً متعجلاً على قيمتها وأهميتها إذ قال: (فجاء مجموعاً قليل القيمة من تراجم الرجال يشوبه غلط كثير في تحديد التواريخ...)[1]. نقول إن ما ذهب إليه بالنثيا لا يخلو من التجني والبعد عن النظرة العميقة الشاملة المستقصية لقيمة الكتاب وإذا صح وجود أغلاط في تحديد عدد من التواريخ فإن هذا له ما يسوغهُ من حال الحُميدي الذي سبقت الاشارة إليه بالنثيا ويلخص في بعده عن المصادر الأصلية في تاريخ بلده وآداب أهله فكان يملي من حفظة معتمداً ما تجود به ذاكرته من المعلومات فكان من المتوقع أن يقع في وهم أو خطأ في تحديد السنين واعتماد الأحداث والدقة في ذكرها.

وفضلاً عن ذلك فإن هذه الظاهرة لا تنفرد بها الجذوة أو مؤلفها وانما نجد مؤلفات عديدة في المشرق والأندلس تتسم بهذه الظروف والعوامل لا تخفى على الباحثين وهي مما عرف في تلك العصور ضمن الامكانات والقدرات التي كانت متوفرة لدى المؤلفين القدامى. وإذا ما قارنا هذه الظاهرة في الجذوة بنظائرها في مؤلفات مماثلة فإننا سنقف على حقيقة ضعف هذه الظاهرة وضمورها وقلة تأثيرها بالقياس إلى أبعاد وآثار نظائرها في كتب أخرى، وتكون الجذوة بهذا أقل المصادر غلطاً أو وهماً في التواريخ وذكر السنين.

(1) بالنثيا، أنخل جنثالث، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص 248.

وفضلاً عن ذلك كله فإن هذه الظاهرة –بحجمها المحدود– لا تكاد تؤثر تأثيراً يذكر على قيمة المعلومات التي عرضها الحُميدي في جذوته وتبقى تلك المعلومات ذات قيمة علمية وأدبية وتاريخية لا يستغني عنها الباحثون مهما اختلفت موضوعاتهم الأندلسية أو تباينت مناهج بحوثهم ودراساتهم الثقافية والعلمية والأدبية.

كما تبقى تلك المعلومات دلالة واضحة على ما وصل اليه القوم من تفرغ للعلم وانصراف إلى خدمته وصيانته وحفظه بكل ما كانوا يملكونه من موهبة ومقدرة ومال ووقت وجهد مع التجرد والاخلاص والصدق والحماس والصبر والمصابرة إلى جانب ما امتاز به اكثرهم –ومنهم الحُميدي– من قوة الحافظة وحضور الذهن وشدة الذكاء والفطنة حتى استطاعوا بمعونة الله والتوكل عليه وابتغاء مرضاته أن يتركوا للإنسانية تراثاً عظيماً يشهد بالتفوق والجد والتجرد والتضحية.

خاتمة:

وبعد فهذه صفحات قليلة أوجزت القول من خلالها في أهم خصائص وسمات عَلَم من أعلام الثقافة الاسلامية في القرن الخامس في الأندلس وقد أكد البحث فيها أهمية الحُميدي عالماً وأديباً ومثقفاً ومؤلفاً ومحدثاً وراوياً للحديث. جمع بين الاختصار والايجاز ووفرة المعلومات والأخبار والآثار والنصوص اللازمة لكل ترجمة من التراجم التي قاربت ألف ترجمة كلها لأعلام أندلسيين عبر قرون طويلة منذ الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الأندلسية وحتى أواخر القرن الخامس للهجرة.

وقد كشف البحث كذلك عن قيمة الجذوة على الصعيدين الأندلسي والمشرقي بما حوته من النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية العامة عن الأندلس فكانت قاعدة هامة من قواعد التاريخ والحديث والأدب مكنت عديد من مؤلفي المشارقة والأندلسيين من الافادة منها في تأليفهم اللاحقة ومما تمخض عنه البحث تلك الصلة القوية التي كشف عنها بين الأندلس والمشرق ومتانة العلاقات العلمية والثقافية بينهما في صورٍ من الرحلات العلمية وتبادل المعلومات والآثار في نطاق واسع وآماداً رحبة تجاوزت الحدود وتغلبت على بعد المسافات ومشقات الأسفار في تلك العصور مع ما تستغرقه من الفترات الزمنية الطويلة. وأخيراً فلعل هذا البحث المتواضع قد أسهم بشكل واضح في اثبات جدارة سلفنا الصالح من العلماء والادباء والمؤرخين والمؤلفين والأشواط التي قطعوها في ميادين العلم والمعرفة وما وصلوا إليه وحققوه من معالم الحضارة الايجابية المتوازنة الحقة؛ في عصور كان العالم خلالها –حول الجزيرة

الاندلسية– يغط في نوم عميق وجهالة جهلاء وضلالة عمياء في ظل سيادة الاقطاع والرق وسيادة الأمية وتحكم الأباطرة والقياصرة.

فله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أ.د. حازم عبدالله خضر

أستاذ بقسم اللغة العربية

كلية الآداب / جامعة الموصل

References

1. Ahmad Amin, "Dawn of Islam," Vol. 3, Fifth Edition, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1388 AH / 1969 CE, Page 279.
2. Al-Afghani, Said, "Ibn Hazm and a Treatise on Distinguishing Among the Companions," Second Edition, Dar Al-Fikr, 1969, Page 316.
3. Al-Daqqaq, Omar, "Sources of Arab Heritage in Dictionaries, Literature, and Translations," Third Edition, Beirut, 1972, Page 285.
4. Al-Dhahabi, Abu Abdullah Shams al-Din, "Memorials of the Preservers," Fourth Edition, Dar Ihya' Al-Turath Al-Arabi, Beirut, Vol. 3, Page 1218.
5. Al-Hamwi, Ya'qub, "Dictionary of Authors," edited and corrected by Margoliouth, Hindi Press in Moscow, Egypt, Cairo, 1925, Vol. 7, Page 58.
6. Al-Hanbali, Ibn Al-Amjad Abu Al-Falah Abdul Hayy, "Golden Shards: News of Men of Gold," Dar Al-Masira, Beirut, Second Revised Edition, 1399 AH / 1979, Vol. 3, Page 392.
7. Al-Marrakeshi, Abdul Wahid, "Al-Mu'jam fi Takhrij Akhbar Al-Andalus wa Al-Maghrib," Edition of the Committee for the Revival of Heritage, 1383 AH / 1963 CE, Pages 72-73.
8. Al-Muqri Ahmed bin Muhammad, "Fragrance of Goodness from the Branch of Moist Andalus," edited by Professor Yusuf Al-Shaikh Muhammad Al-Baqai, Dar Al-Fikr for Printing, Publishing, and Distribution, First Edition, 1986, Vol. 1, Page 314.

9. Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Ayyubak, "Al-Wafi bi Al-Wafayat," Second Edition, edited by Helmut Ritter, 1381 AH / 1961 CE, Vol. 4, Pages 317-318.
10. Anan, Muhammad Abdullah, "Abd al-Rahman, States of the Sects until the Murabit Conquest," Second Edition, Cairo, 1389 AH / 1969 CE, Pages 376-408.
11. Balnithya, Anghal Janthalith, "History of Andalusian Thought," translated by Hussein Munis, introduction by Sulaiman Atar, National Center for Translation, Cairo, 2011, Page 248.
12. Brockelmann, Carl, "History of Arabic Literature," Vol. 6, edited by Ramadan Abdul Tawab and Sayed Ya'qub Bakr, Dar Al-Ma'arif, 1977, Page 6, Page 104.
13. Harun Abdul Salam, "Tahdhib Siyar Ibn Hisham," Al-Risalah Foundation, Beirut, 17th Edition, 1408 AH / 1988 CE, Page 52.
14. Ibn Bashkwal, Abu Al-Qasim Khalaf bin Abdul Malik, "Al-Silah," Egyptian House of Authorship and Translation, 1966, Page 82, Section 30, Page 561.
15. Ibn Khallikan, "Deaths of Eminent Men," edited by Dr. Ihsan Abbas, Volume Four, Dar Sader - Beirut, 1397 AH / 1977 CE, Vol. 4, Page 282.
16. Ihsan Abbas, "History of Andalusian Literature - The Era of Cordoba's Sovereignty," Second Edition, Dar Al-Thaqafa, Beirut, Page 315.
17. Ya'qub, "Dictionary of Authors," Vol. 2, Page 67. Also, see the research "Unique Connection between the East and Andalusia," Al-Rafidain Journal of Literature, Issue 7, Shawwal 1396 AH, Pages 329-364.

Abu Abdullah Al-Hamdi And his book Jathwat Almuktabas Author

Hazem Abdullah Khader*
(May God bless his soul)

Abstract

For the importance of Al-Hamidi's literary and cultural personality, the study involves some of the characteristics of his literature - in poetry and prose - in order to be an entry point for the introduction of the book, understanding its objectives and the purpose of its writing.

Thus, the study dealt with his book "Jathwat-almuktabas" , based on a brief presentation of the references of the book and its approach and the what had been said about the links between it and other oriental or Andalusian books.

The nature of the study required to indicate part of it in its proper place, and the study also addressed aspects of what the Jathwa Book has involved of literary and historical value. And what has been occupied by this book- despite of being one volume- from the writings and Andalusian effects, also what is characterized by brief feature on artistic writing levels and his literary and historical value style.

Keywords: (society, ideas, literature).

***Prof. / Department of Arabic Language / College of Arts / University of Mosul**